حب محمدی

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books - بيلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

حُبِ مُصري

رواية

رجاء فوزي

"العنقاء"

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

書誌事項

- **الكتاب: حب محمدي**
- **ا لمؤلف:رجاء فوزي**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2461 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-79-8**

- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- تدقيق: ببلومانيا
- الغلاف: فريق تصميمات ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: 27 شارع جمال الدين دويدار من عباس العقاد – مدينة نصر - القاهرة
  38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

إهداء"1"

للأطفال الذين يدفعون ثمن تهور وسذاجة إختيار آبائهم، للفتيات اللواتي تزوجن من أجل الزواج كطرحة وعرس وسترة!

للواتي سألتهن عن تفاهمهن مع خاطبيهن، فأجابوني بسذاجة " لا نعرف بم علينا أن نتحدث! "

للأمهات اللواتي لا يفقهن شيئا سوى أن الفتاة عليها أن تتزوج، وأنها إن تزوجت صغيرة سترتاح منها باكرا، كي لا تجلب لها وجعة الرأس، من تعليم وشخصية مستقلة، فعادت لها إبنتها بمصيبة حقيقية من بيت زوجها مطلقة، وبيدها أطفال.

للآباء الذين بحثوا عن رجل ذو منصب أو مال، أو الذين لم يبحثوا عن أي شيء، ولم يتبينوا من خلق زوج ابنتهم، للذي ذل ابنته أمام زوجها، حين قبله بداية، ثم لم يقل لها شيئا سوى " لا مكان للمرأة سوى بيت زوجها "، للذي تخلى عن أثمن ما قد يحصله بالحياة، للذي لم يكن ظهرا لها، ولم يسمع منها، ولم يخبرها مرارا وتكرارا أنها تساوي لديه كل ما بالحياة، وأنها في أي لحظة قادرة على الإنسحاب من خطوبتها، إن رأى من زوجها ما يظهر بوادر العنف أو التقليل من قيمتها.

لكل شاب أحب فتاة وأرادها بحق، ولكل فتاة أحبت شابا بالله، وكان حب الله بقلبها أعظم من أي شيء.

لكل الخاطبين والمتزوجين والمقبلين على الزواج، أهدي حروفي، وما فيها من حكمة والدي، الذي علمنا بالتطبيق لا بالقول كيف تكون الأسرة وكيف تبنى العلاقات على أسس صحيحة لتثمر حب صحيحا صادقا، قادر على احتضان ثمرة أطفال وعائلة بتفاهم و روابط متماسكة و متينة.

إهداء "2"

للجلسات الطويلة حتى فجر كل يوم في ظل حكمة والدي وعلمه، لتلك التي كانت تطرق باب غرفتي كلما أقفلته وتحثني وإخوتي للجلوس مع والدي والتعلم منه، للتي علمتني الكتابة، وسمعتني ونصحتني وشجعتني حين كنت أدعي أني كتبت شعرا وما كنت أفعل شيئا سوى أني أكرر الحرف الأخير في كل سطر، ثم للتي كانت ترى كل شيء أفعله عظيما ومدهشا ورائعا حتى كبرت، وللشابين اللذان يكبراني والشاب الصغير الذي يصغرني..

لعائلتي الأولى والداي وأختاي وإخواني الثلاثة.

ثم لعائلتي الثانية : العائلة الأدبية التي بدأت بها وكبرت معها وفيها " ببلومانيا ".

لكل أصدقائي ومتابعَيِ من مادحي و نقاد.

و لكل من قرأ حروفي أو سيقرأها غدا أهدي أولى حروفي الموثقة في مجال الرواية العربية، تحت عنوان " حب محمدي ".

_1_

"هلا ابتعدت عني قليلا"

هذا ما قالته له بعد ثلاثة أحلام عشق، وحلم أحدث خللا بكل شيء

محاولات عابثة لتغفو، بعد أرق لازمها منذ ليال، صوت القارئ عبد الباسط يتلو بعضا من الذكرحتى غفت..

وغرقت بفجوة صمت ...

صمت بقدر المجرة، وأنين شخص يجلس على الكرسي الهزاز بالقرب من سريرها!

كان الصوت مألوفا جدا لها، فبعلى الرغم من أنها كانت منهكة جدا، إلا أنها أفاقت وهي تنادي باسمه، رفعت فراشها، واقتربت من الصوت أكثر وأكثر، رفع نظره لها ثم أعاد كفيه على وجهه..

قالت له : ما بك عزيزي، مالذي يبكيك !

كانت تحادثه كأنه قريب لها، وعلى االرغم من ذلك فقد كانت كل أطرافها ترتجف تحاول أن تتزن أمامه لكن عبثا..

قال وهو يحاول أن يهدأ قليلا :

تعبت من غربة الروح، من شعور داخلي لا يأبه به أحد، صوت يتفجر في داخلي كل يوم، وأشعر أنني أسعى بلا هدف ولا غاية..

كلما شعرت أني أقترب مما أريد رأيت نفسي أبتعد وأبتعد، إني أعيش بدوامة الزحف إلى الوراء..

فقالت له بعجب وهي تمسح بيدها على كتفه : أين أهلك وأصدقاؤك عنك، ألا يوجد من يشعر بكل هذا الألم في صدرك !

قال وهو يضع يده فوق يدها : لو كان لي لما أتيتك..

أعلم أن لا شأن لك بي، وأني آخر من قد يخطر ببالك، ولكني لست أدري لما أشعر بشيء يجعلني أسأل نفسي لما أنت وحدك من أحب حديثك ويسعدني لقاؤك، حتى أمي، حتى أمي التي أشعر برضاها وحبها تتغاضى عن مشاعري، لقد تعبت من الكلمات التي بلا معنى، والوعود التي يلجمونني بها كلما نطقت، حتي يلجم نبضي بأفعالهم..

بكت هي، دون أن تعرف السبب، كان بودها لو تشق صدره، وتنزع كل خلية دم باتت رمادية تحمل في تراكيبها دخان القهر الذي يلهب صدره، لكنها أسرعت بلا وعي لتحضر زجاجة الماء بعد أن أخبرها أنه عطش وهو يشرق بدموعه، ناولته الزجاجة، فرفض أن يشرب نظر إلى عينيها وقال : اسقني أنت..

وقفت مشدوهة أمام طلبه، صوت خرخشة بصدره بدأت تعلو، صرت على الزجاجة بكلتا يدها وهي ترتجف قربتها منه وسقته، بينما كان هو يتأمل

ارتباكها، وضع يده فوق يدها وقال بامتنان: أبدلك الله إياها بسقيا من الكوثر..

وأفاقت

لم يكن كابوسا، لكنه كان كفيلا بإبقائها نهارا كاملا بالفراش، حرارتها تتجاوز الأربعين، وألف سؤال وسؤال يشغل خاطرها..

لقد رأيته، على الرغم من أني لم ألقه يوما، كان مجرد اسم في قائمة طويلة من الأصدقاء، لم يتجاوز حديثنا يوما نقاشا عابرا، ولم يكن يعني لي أكثر من صديق مثله كمثل ألف غيره. صورته وصوته وحضوره بالمنام كان كفيلا بتشتيتها بالكامل..

كانت سارة كثيرة الأحلام، تحلم بكل من ترى، وبكل من تفكر به، سريعة التخاطر، والرسائل الباطنية تصلها سريعا..

لكن المريب في الأمر كان أنها لم تره ولم تفكر به ولم تسمع صوته من قبل..

كان شيئا سماويا لا علاقة لها به، ولا يد لها به، ظلت تفكر طوال اليوم، فكيفما تقلبت في فراشها رأته أمامها، وكلما أغمضت عينها , سمعت صوته..

أسدل الليل ستاره، معلنا بدء الليلة الثانية..

مر نصفها وهي تتقلب في فراشها، تخشى إخباره بالأمر، ليس خوفا منه، إنما خوفا على نفسها، من أن يراها أحد بصورة مماثلة، أن تكتب لأحد وهي ترتجف، أن تحدث شخصا لم تحدثه من قبل بأمر مشابه..

أرسلت له ومازالت مترددة :

- السلام عليكم..

كان مستيقظا، فرد على رسالتها باللحظة ذاتها:

- وعليكم السلام، كيف حالك ؟

شعرت بهشاشة موقفها، ماذا يعني أن أطرق باب أحدهم لأخبره في ساعة كهذه أني حلمت به، واستفقت على صوت أذان الفجر، أنني مازلت طريحة الفراش منذ الصباح..

كانت تريده أن يعرف كل شيء، لكن دون أن تقول، تريد أن تخبره بأن الله قد أرسله باكيا لها بالمنام، لكن دون أن يعرف شيئا عما حدث، كانت خجلة جدا من أن تنطق أمامه بحرف واحد، لكنها بدأت بالحديث، وما عادت لديها فرصة بالانسحاب..

فإنها لو لم تخبره سيكون موقفها مخجل أكثر، إذ أرسلت له بعد انقضاء الثلث الأول من الليل.. قالت:

- بخير، أريد أن أخبرك أمرا، قد حدث معي صباح هذا اليوم.

وأتبعت ذلك بسرد ما حدث دون أن تعلمه التفاصيل، اكتفت بأن تخبره أنها رأته وسمعت صوته وأنه كان يبكي ويشكي لها عن حاله وعن ضيق يشعر به وأنه قد ذكر والدته.

ثم أخبرته أنه طلب أن تسقيه بيدها. الصدمة كانت جلية على اثنينهما، استنكر ذلك وتعجب، ثم حاول تهدئتها، بدأ بإخبارها عما يعكر صفو مزاجه، وأنه أحيانا يتساءل لما اهتم بأن تحضر هي دونا عن سواها، وبعض مما برر الموقف بعض الشيء فشعرت أن الأمر كان تخاطرا، وأن الله كان يريدها أن تحادثه، بدأ عداد قلقها وتوترها بالانسحاب تدريجيا حتى أراها صورته..

كانت صدمتها به أكبر بكثير من أن تستوعبها، إذ إنها بدأت بتناسي الصورة حتى رأته أمامها، إلا بعضا من التفاصيل، فقد بدا أكثر نحولا وشعره أكثر طولا وكثافة..

حتى بالحلم كانت تفكر، جاءها صوته، يناديها بشغب :

- سارة، سارة لقد أتيت هيا أفيقي.

فتحت عينيها بفزع، وهي تحاول أن تجمع ملامحه التي كانت بالكاد تراها، لتتأكد من صاحب الصوت، حتى رأته أمامها فرددت بداخلها " نعم هو محمد ذاته الذي حلمت به البارحة " ..

نظرت إليه، ثم رفعت نظرها نحو قفل الباب لتتأكد من أنه مقفل، ثم نظرت لأختها الصغيرة بجوارها شاكرة الله أنها لم تفق على صوته

وبعد ذلك قالت له وقد عقدت حاجبيها :

مجنون أنت !

اخفض صوتك، سيشعر بك أهلي ويفيقون!!

فضحك وهو يراقب ملامحها، ثم قال : سأقترب إذن لتسمعيني جيدا..

وعزم على الاقتراب، فمدت يدها ناحيته وقالت : لا تقلق سأسمعك وأنت بمكانك

ضحك وأعاد ظهره للخلف مستندا على الطرف الآخر للسرير..

كانت تحاول أن تلهيه عن نظرته تلك فقالت : كيف حالك اليوم ! هل أنت بخير ؟

قال : حين أكون هنا.. أكون الخير بحد ذاته

فقالت : لتكن هنا دائما إذن

ابتسم وقال : مجبرة أنت على استقبالي، فقد أدمنت سقياك

فقالت باستغباء : لم أفهم !

فأجابها : أيمكنني أن أشرب من زجاجتك وأشار بنظره ناحيتها على الطاولة المجاورة لسريرها

فقالت : بالطبع، تفضل..

ومدتها له

فابتسم وقال : اسقني أنت..

قالت له بسخرية استنكارية : لك يدين

فأعادهما خلف ظهره وقال : بربك اسقيني، عطش جدا

وأقسم أني لن أذوقها إن لم تسقيني

فتحت عينيها على أوسع ما يكون وقالت : لا تقسم !!

فاقترب منها وجلس في منتصف سريرها وقال : هيا..

نظرت إليه بتربص وهي تفكر كيف ستفعلها، تزم فاهها وتبلع ريقها وتنقل بصرها بينه وبين الزجاجة التي بين يديها

وقلبها ينبض باضطراب طفل صغير..

مد يده نحوها وقال مشجعا: هيا.. هيا..

أكاد أموت عطشا

كانت تشجع نفسها، لكن نبض قلبها المضطرب يثقل حركتها

وضع يده على يدها التي تمسك الزجاجة وصر عليها في مكانها، نظر إليها وقد كادت أن تتبخر خجلا، ابتسم ابتسامة مطمئنة لها ورفع الزجاجة ممسكا بيدها وشرب..

وأفاقت..

نبض مضطرب ينبض بكل جسدها، حرارة عالية غزت جسدها ووجنتيها، وصمت خيم على صدرها..

لم تحاول أن تهرب من المنام، ولم تحاول أن تبقى، لكنها حمدت الله أنه لم يبق أمامها أكثر وهي بوضع كهذا..

وصلها إشعار منه

صباح الخير..

كيف حالك اليوم

قالت : بخير، الحمد لله

لقد حلمت بك أيضا، لكني لم أكن خائفة منك كالمرة السابقة

قال :

لربما كان لقولي وإخبارك بكل تفاصيلي دور

فأنا لم أعد بالنسبة لك شخصا مجهولا..

قالت : نعم، أظن ذلك

ثم أتبعت : طلبت أن أسقيك ماء بالرغم من أنك لم تكن متعبا

وضعت يديك خلف ظهرك وأقسمت أن أسقيك أنا..

فقال بشقاوة : يبدو أن الأمر أعجبني وبت أتدلل عليك

فقالت : كنت شقي جدا

***

_2_

مر اليوم التالي بهدوء، بأحاديث قليلة جدا، أخبرته فيها بعضا من الملاحظات التي كانت تلاحظها عليه فيما سبق، وكان يبرر ذلك، خشية أن يفهم الأمر بطريقة سيئة من قبلها، إذ كان يكن لها كل احترام وتقدير

وكالعادة كان الأرق يأخذها في دواماته إلى أن سرقها النوم في الساعة الثانية والنصف تقريبا بعد منتصف الليل..

كانت تظن أن الأمر سينتهي إلى هنا، خجلت جدا منه، ومن أن تخبره مجددا أنها حلمت به، إذ سيبدو الأمر بلا قيمة بعد الحلمين السابقين..

لكن حلمها به هذه المرة كان له ضجة مختلفة، كان مكتظا بالأمارات التي كانت تخشى أن تفسرها، متأملة أن يظل الأمر مجرد حلم وفيلم كانت هي البطلة به، وتجربة لا يمكن أن تجربها سوى في عالم الأحلام الافتراضي هذا..

لم يزرها هذه المرة في بيتها، ولم يكن يريد أن يقول لها شيئا..

طريق مظلم كاحل السواد، كانا واقفين في بدايته، كانت هادئة جدا، كجبل أو صرح عظيم بلا حراك، عيناها معلقة به وصوتها مخطوف تماما..

أما هو فقد كان سعيدا جدا، يتحرك بعفوية وكأنه لا يرى ما تراه حولها

قال لها : هيا تعالي، لمَ تقفين بمكانك!

لم تنطق كانت تراقبه بصمت، وتكاد تصرخ خوفا كي لا يبتعد كلما ابتعد قليلا وهو يناديها لتسير بجواره، وبالوقت ذاته قدماها لا تقويان على الحراك

ابتعد قليلا فرأت نورا يضيء حوله، وكأنه وحده من يشعل النور، اقترب منها وشدها من أكمام ذراعها وهو يقول : هيا!.. سأذهب وحدي إن لم تأت..

كان يسير وكأنه ملك الغابة، سيد المكان، ليس خائفا من شيء

أما هي فقد كانت مضطرة للسير بلا اعتراض أو اختيار، فقد كانت لديها فوبيا منذ الصغر من الأماكن المعتمة، ولو كان الأمر بيدها لتشبثت بذراعه طوال الطريق

مضت بجواره وعيناها تجوب المكان تارة وتتعلق به تارة أخرى

كان منزعجا جدا، كأنه أراد يبحث عن شخص ليحادثه، وكأنه اختار هذا الطريق تحديدا كي لا يشاركه همه سواها

قال وهو يجر أقدامه ببطء :

أتدرين يا سارة..

الأشخاص الذين خلقوا بتركيبتي، لا يمكنهم البوح إلا بحلم، أغنية، وأقصاها حروف بالية على ورقة، حروف لا تمثل للعالم شيئا

أنا أدور في أفلاكي بلا هدف، الطاقة المركزية التي كانت تجعلني أبدو ثابتا لهذا اليوم بدأت تتأرجح..

لطالما شعرت بأنني شخص قريب، قريب من كل شيء، ومن الجميع، إني أضعف بكثير من أن أؤذي نملة، أو أخيف قطة..

الضعف ليس بمعنى الخوف، إنما ضعيف القلب، ورقيق جدا

لم أقدم يوما شيئا لأحد منتظرا منه ردا، ولم أحاسب يوما أحدا على ما فعل بقسوة، لم يكن ذلك الا من باب العتاب

شعرت كثيرا بالرغبة بالاقتراب من الجنس الآخر وأن أحتل منزلة أكثر من كوني أخ أو صديق، لكنني وكلما شعرت بميل اتجاه أنثى وجدتني أعود لمكاني وأثبت نفسي جيدا، لأنسحب من أي شيء..

كثر هم أهلي، أقاربي وأصدقائي ومن حولي، كل من يتعامل معي، يحب محمدا الذكي، المتحدث، صاحب العقل، الناس والفتيات دوما يلفت انتباههم فكري وطريقة تحليلي للأمور

الجميع يرونني ملاكا بأجنحة ووحدي من أرى سوءي وأداريه

أصبحت أبحث عن رقعة تخصني وحدي

ولو كان شبرا في منزلي، جدار في غرفتي القديمة، حجر أمي، أو زاوية في قلب أحد تخلو من كل شيء سواي

أخذ شهيقا بطول حديثه ليفيقه مما كان سارحا به، وجدها بجواره بذات الصمت، لكنها أقرب من السابق له

نظر إليها إذ كانت تقف على يمينه سارحة بما يقول

فقال لها: لقد جعت كثيرا سأتناول شطيرة الزيت والزعتر

جلس على أحد المقاعد الخشبية سريعا

تلاشى الضوء من حولها، إذ كان يلفه وحده حين يسير

جفلت فجأة، تسارعت نبضات قلبها أكثر وأكثر، انقطعت أنفاسها وبدأت تنظر من حولها باحثة عنه، والدموع تسقط نتيجة فيضان خوف في داخلها، حاولت أن تناديه لكن صوتها ما خرج منها..

تنادي بحروف مشتتة

م..

م... حم..د

فقال لها بمرح : ها أنا هنا..

متربع فوق الكرسي واضعا حقيبة ظهره جانبا..

نظرت إليه وأسرعت نحوه وقلبها بالكاد يسقط منها

وحين وصلت كان الفزع جليا جدا على وجهها الذي خطف لونه وتحول إلى أصفر باهت

لما رآها وقف ببطء وهو يقول:

سارة!

ما.. بك، عزيزتي !

أمسكت بطرف قميصه وقالت وهي ترتعش :

لمَ.. ذهبت، أنا خائفة جدا!

قال وهو يحاول أن يستجمع قواه بعد أن رآها خائفة بهذا الشكل : أعتذر قلبي لم أقصد ذلك..!

ظلت ممسكة بطرف قميصه وترددات ارتعاشة جسدها انتقلت إليه، فارتعش جسده وغزته قشعريرة أدمعت عينيه

ثم بلا أي وعي مد ذراعيه وأحاطها بهما ثم ضمها..

كانت لحظات ثم توقفت عن البكاء، وكأن صدره أخذ كل ما فيها من ضيق وفك حصار قلبه عنها ببطء ثم نظر لها

مبعدا يديه وقال : أأعتذر..

لقد ك..نت

حسنا..

قفز نحو حقيبته بشغب وأحضر زجاجة الماء خاصته وقال لها :

سأسقيك أنا هذه المرة لأني أخفتك

ظلت واقفة محاولة استيعاب الموقف، فقال لها بلطف : هيا، إنها لذيذة.. جربيها.. هيا...

كادت أن تبتسم على الحملة الدعائية التي قام بها للتو، لكنه فتح الزجاجة ورمى وجهها بالماء فشهقت بفزع ونظرت إليه، وأخذ هو يضحك على ملامحها العجيبة حزن، خجل، خوف، راحة، فزع وصدمة بآن واحد..

كتمت أنفاسها قليلا، لكن كعادتها، إن ضحك أمامها أحد لا يمكنها كتم ضحكتها، فانفجرت ضاحكة..

وبعد أن ضحكا قليلا أجلسها على الكرسي ومد لها الزجاجة، وحين مدت يدها لإمساكها سحبها وقال : ألن تقسمي أن أسقيك أنا

أغمضت نصف عينيها وكأنها تتوعد له وتسخر منه، ثم مدت يدها له ثانية، قاصدة أن يناولها إياها

فأقسم أنها لن تشرب قطرة واحدة إن لم يسقها هو

كانت عطشى جدا، لكنها أصرت على موقفها عقدت حاجبيها ووقفت، فأمسك يدها وأجلسها على المقعد ثم قال: سأسقيك وإلا ذهبت، وضحك بشقاوة

فهزت رأسها بانهزام، وسقاها..

لملم حاجياته بالحقيبة وارتداها سريعا ثم عادا ليسيران وما هي إلا لحظات حتى وصلا باب بيت، لا تعرفه، لكنه كان يفترض أنه باب بيتها، كانت موشكة على الدخول لبيتها حين ناداها صوته وهو يستعرض مهاراته في كرة القدم أمامها. وقفت تنظر له وابتسامة على محياها فحمل الكرة على كتفه وودعها بيده ثم أفاقت..

أفاقت، ولكن ثمة أشياء فيها لم تفق بعد..

كان جسدها ثقيلا جدا، أمها تناديها، وأختها تتحرك حولها بخفة وكأن الجاذبية الأرضية كلها قررت أن تتركز بها، وتذر كل من حولها ليحلقوا بخفة ومرح.

ظلت تبحلق بسقف غرفتها لبعض الوقت بلا حراك، ثم التفتت نحو هاتفها لتنظر إلى الساعة، تأخرت على دوامها الجامعي، كان من المفروض أن يوترها ذاك الأمر فتفيق كالمجنونة، لتتمكن من الوصول قبل أن يفوتها موعد الحافلة كالعادة، لكنها رمت الهاتف جانبا ورفعت شعرها من أسفل رأسها لتتمكن من البقاء بوضعيتها لوقت أطول، وقررت ألا تذهب للجامعة اليوم..

كانت قد لمحت إشعار رسالة على الماسنجر، لكنها لم تأبه فلا أكثر من إشعارات رسائلها..

غطت نفسها جيدا، وطلبت من أختها إطفاء النور لتواصل نومها، لكن الأفكار لا تغادرنا بهدوء، ظلت تفكر..

صوت تفكيرها الداخلي مشوش، ليست قادرة على أن تفكر بشيء معين، بقيت لساعة وهي تسمع وشوشات لا معنى لها

- ما بك عزيزتي..

سارة..

إني أضعف بكثير من أن أؤذي نملة، أو أخيف قطة..

ها أنا هنا..

- لما.. ذهبت ؟ أنا خائفة جدااا

- أعتذر..قلبي

ألن تقسمي أن أسقيك أنا !

سأسقيك وإلا ذهبت..

أغمضت عينيها ثم غطت رأسها بالغطاء، وبدأت تعيد بعض المشاهد

سارة.. ثم يستعرض حركاته..

سأسقيك أنا.. ورمي وجهها بالماء

ثم ضمه لها..

وحين تذكرت الأخير ابتسمت، وأعادت رفع الغطاء وهي تأخذ نفسا عميقا وكأنها الآن قد استفاقت..

جلست، ورفعت شعرها المنسدل بمشبكها، أمسكت زجاجة الماء لترتوي قليلا، لكن الزجاجة باتت بطلا في أحلامها..

شربت، ثم نظرت إليها وضحكت وكأنها تقول لها ماذا فعلت بي..

أمسكت هاتفها، رأت إشعار رسالة منه..

كان يقول لها "صباح الخير سارة كيف حالك اليوم !"

فردت باختصار

"حلمت بك مجددا ! "

فرد " لم أكن أنا.. قد نمت البارحة هنا لم أزر بلدك "

ضحكت ثم عقبت " لقد كنت أنت، لكني لم أكن أنا "

تفكر هي بإجابة سؤال واحد..

كيف أتصرف؟

لقد بات الأمر مضحكا، وبالوقت ذاته ليس طبيعيا ولا يمكنني تجاهله، والأكثر سخفا أنني بت أفكر بالأمر كثيرا، وبدأ هذا المحمد يشغل حيزا لا يمكنني أن أتجاهله في يومي..

أؤمن جدا بالرسائل الإلهية، والتخاطر، وقوة العقل الباطن..

لكني لا أؤمن بالحب !

وأي حب هذا الذي بني على بعض الأحلام والرؤى..

ثم بدأت تبحث في إجابة لسؤال أكبر..

" كيف أدرك أني قد وقعت بالحب أم لا !"

***

_3_

لم تمسك هاتفها إلا بعد أن رتبت فراشها وصلت الضحى، بانتظار العائلة لتفيق

وكعادتها، شغلت الراديو المركون على الطاولة بقرب النافذة، وجلست بجوارها تنظر لنفسها بالمرآة الكبيرة..

بالعادة تستمع صباحا لبعض الفيروزيات، أو أحد البرامج الصباحية، لكنها هذه المرة وبلا أن تدري السبب أبقت على أغنية للفنان تامر حسني باللهجة المصرية، ووجدت نفسها تستمع لها بنهم واهتمام، ثم وجدت نفسها تضحك وتغني معه وخصوصا حين يقول:

"عمرها حصلتلك دي، تبقى لسى شايف حد.. وانت لسى ما تعرفوش.."

بس نفسك تجري عليه، تحضنو وتنام بعنيه وإنت لسى ما تعرفوش..

أيوة ما تعرفوش.."

وبعد ذلك أخفضت صوت المذياع، ووقفت فوق سريرها متجهة نحو مرآتها التي تشهد دوما على جميع لحظات جنونها.

كانت تفكر بصمت، لكنها وكالعادة تبدأ بالتحدث بصوتها المسموع، وتحادثه لم تنتبه على نفسها سريعا، كان عقلها مغيبا تماما تتصرف كالبلهاء وتنظر له وتحادثه

وحين انتبهت لذلك انفجرت ضاحكة بأعلى صوتها، مما دفع والدها أن يطرق بابها ثم يفتحه ويسألها عن سبب ضحكها المجنون هذا!

ولأنها لا تدري بم تجيب، ارتبكت وضحكت بعفوية وفتحت يدها قائلة : بلا سبب

ضحك والدها وهو يقول "لا حول ولا قوة إلا بالله.. ابنتي جنت "

ثم خرج متوجها لغرقة المعيشة.

أغلقت الباب خلفه سريعا ووضعت يديها على فمها لتكتم صوت ضحكتها، ثم اتزنت وهرولت نحو هاتفها إذ وصلها منه إشعار ردت عليه بقصدها باختصار شديد للحلم، مركزة على وضعه هو بالحلم وكيف كان يتصرف بشغب..

كثرة الرسائل كانت أمر مزعج لها، وخصوصا تكرارها لجملة "حلمت بك "

والأمر حقا ليس عاديا، فنحن نحلم بمن نعرف حلما واحدا نظل نردد به ألف مرة وفي كل لحظة يتراءى لنا شيء منه، فكيف إن كان شخصا غريبا تماما وفي بلد آخر، وأحلام بهذه التفاصيل !

بات أمر إقصائه عن ذهنها، وتجاهل زقزقات نبضها كل صباح أمرا غاية في الصعوبة.. وبالوقت ذاته، أن تعترف بحبها له ولو بينها وبين نفسها أمر مستحيل.. فلا أعند من عقلها إن أرادت لقلبها أن يعترف بشيء من هذا القبيل.. لقد كانت الأحلام إجرام بحقها..

فقد كانت المرة الأولى التي تحلم برجل غريب، وبطريقة لا علاقة لها بها، ولا علاقة لتفكيرها وحذرها بها، والمرة الأولى التي تخبر بها أحد بأنه يحتل جزءا منها..

لقد كانت المرة التي تشعر بها أنها تفكر بأمر تخشى أن يكتشفه أحد !

مرت ثلاث ليال..

ثلاثُ ليالٍ بلا أي ذكر للنهار، فقد قلبت الآية، وباتت تستفيق ليلا بالحلم، وتظل مغيبة طيلة باقي ساعات اليوم..

وحين جاءت الليلة الرابعة، كانت تود محادثته بلا سبب، لكنها امتنعت عن ذلك ذوقا خشية إزعاجه..

لكن النوم هذه المرة خطفها، من التفكير ومن الأرق ومن السعادة حتى..

عجوز فمها متدل الأطراف يشر دما تطاردها، وكلما وصلت إليها بعد هرب طوييل، تنفث دماء عليها، وتغرس مخالبها داخلها وتخرجها، حتى إذا قاومتها وفرت صاحت صيحة مزقت قلبها خوفا..

أما هو فقد كان موجودا، مجرد صورة تظهر وتتلاشى دون أن تفعل شيئا..

كالشمس والقمر.. شيء جميل لكنه لا يحدث فرقا، كانت تهرع منها لاجئة لوجهه، لكنه كان يتبدد سريعا كلما وصلت إليه كالسراب..

إلى أن أصبحت من خوفها تمزق أفواه الأسود، وكأن تعويذة تلك العجوز بدأ مفعولها يسري بدمها..

إلا أنها حين فعلت ذلك ظهر أمامها، فزال سحر التعويذة وخوفها وهرعت إليه منادية إياه: محممممد

فتح ذراعيه لها، وأخذت تبكي وتبكي وهي متشبثة به، لكن ولسوء الحظ لاحت العجوز فتبدد حضنه مجددا

وقبل أن تصلها العجوز، وهي تبكي وتتنهنه وتصرخ بأعلى صوتها كما الطفل الرضيع حين تفارقه أمه..

أفاقت.. لم تفكر بشيء، سوى أنها تريده بتلك اللحظة، وفور استيقاظها أرسلت له كلمات مبعثرة، متقطعة، بلا ترتيب ولا وعي

واستيقاظه في ساعة متأخرة كهذه ساعدها أكثر كي لا تفيق، وتظل في حالتها وقتا أطول.. أما الذي جعلها تفيق حقا، جملته التي قالها حين رآها متلعثمة وخائفة لهذا الحد " ليتني باستطاعتي أن أضم رأسك "

هو لا يحلم بها، لا يعرف شيئا عن أحلامها، ولا يمكنه حتى تخيلها، لكنه يردد كثيرا من الكلمات التي تشعرها بأنه يعرف، لكنه مثلها أيضا لا يقول..

أحدثت كلماته هاته اهتزازة أيقظتها، فبدأت تعتذر له، وتحاسب نفسها، بلا أدنى تفكير بالرجوع لما حدث، وقراءة ما دار بينهما.. حادثته حتى غفت..

وفي الصباح الباكر لليوم التالي، كان جسدها منهكا جدااا مما اضطرها لأن تتغيب يوما آخر عن جامعتها، ظهرت إشارتها الخضراء إذ أصبح حسابها نشطا فأرسل لها ليطمئن عليها بعد ليلة البارحة وما حدث، لم تخبره هي بأي

تفصيل عن الحلم الأخير، لكنها شعرت بعدها أنها لا تريد أن تبتعد عنه لحظة واحدة.. وحين أرسل لها ليطمئن عليها.. أخبرته بأنها متعبة جدا، وبأنها لم تذهب للجامعة، وبقيت في فراشها.. فقال لها : لقد نمت وأنا قلق عليك وأفقت كذلك، حينها قالت له : أيمكنني أن أطلب منك أمرا !

فقال سريعا : بالطبع.. لن أتردد..

فقالت له : أريدك أن تحظرني..

تعجب من طلبها، لكنه لن يقبل أن يكون متطفلا، أو شخصا مزعجا بالنسبة لها، ويدرك جيدا حجم الفوضى التي تخلفها أحلامها به، لذلك لم يرفض.

قال : لا بأس بذلك، لكن تذكري أننا اجتمعنا على خير وسنفترق عليه

مرت اللحظات الأخيرة سريعا.. ظنا منهما أن الأمر انتهى..

ليسا حزينين لفراق بعضهما البعض، فكل الحكاية لم تتجاوز أربع ليال

لقد قالت له ببساطة "هلا ابتعدت عني قليلا "

قالت هلا ابتعدت لأتزن، هلا ذهبت لأعود، هلا تلاشيت لأظهر..

أرادت أن لا تزعجه بها، أن لا توقظه، أن لا ترتجف وهي تكتب

لقد كانت عذراء من أي ضعف، وكان حضوره وليد قلبها الأول، لذلك فقد استنزف من قلبها الكثير..

لكن ما لم تكن تعلمه أن الله كان يريد أن يتم شيئا، لم تدركه بعد..

_4_

ذهب هو، وابتعد كما أرادت هي، أو لنقل كما أراد كبرياؤها، لكنها سرعان ما استفقدته في أول صباح تالي لم تحلم به..

فبعد أن كانت تريد التخلص منه لتتزن أصبحت تبحث عنه، لتشعر بالمزيد والمزيد

لقد كانت جرعة شعور مركزة، ولم تتمكن من العيش دونها..

مرت الأيام لم تحدثه لكنها لم تنسه أيضا وفي كل يوم قبل نومها تفكر به علها تلاقيه بالمنام لكنها لا تقابله، وكثيرا ما كانت تحاول محادثته لكن كبرياءها كالعادة كان يفلح بمنعها..

وفي بداية الفصل الدراسي اللاحق رأته.. لم يكن حلما، ولا كذبة..

كان أحد طلاب التبادل الثقافي بين بلدها وبلده، ليست صدفة بالطبع، كان السفر الأول بحياته، إذ كان يجهز لرسالة الدكتوراة، وأتى لبعض الأمور العلمية والبحث..

وكانت المرة الأولى التي تضطر فيها للذهاب لمبنى القبول والتسجيل مع صديقتها التي قررت أن تلتحق بتخصصه ذاته وأن تجلس على مقاعد الاستراحة الخاصة بهم، فالاختلاف شاسع بين تخصصيهما، والبعد بين المباني كبير..

واحتمال اللقاء بلا أي حديث وترتيب مسبق بينهما شبه مستحيل، الأمر كله ترتب وحده لهما ليجتمعا من جديد.

بالنسبة له تلك البلاد هي..

وبالنسبة لها وجوده على بعد شخصين..

أمر يستحيل تجاهله كما فعلت في السابق من جديد..

كانت تفكر كيف ستخبره بأنها هي سارة، ومن ثم ولكثرة التفكير وباللحظة ذاتها بدأت تشك بكونه محمدا، لكن ما جعلها تتأكد من ذلك أنها قد غادرته منذ أشهر ولم تشبه أحدا به، لقد كانت ملامحه وتفاصيل شكله محفورة بعمق داخل عقلها..

كانت تفكر وتنظر له بطرف عينها كل دقيقة حتى غادر المقعد متوجها للاستعلامات

للحظة كانت تود القيام واللحاق به، وتقول له ببلاهة كيف حالك يا محمد..

لكن الصدمة كان أكبر منها فظلت جالسة في مكانها تراقبه من بعيد..

وفجأة توقف في منتصف الطريق وحول اتجاهه نحوها، وحين وصل إليها وهو يمسك بعضا من المعاملات قال لها : "المعذرة يا آنسة.."

المعذرة يا آنسة.. المعذرة يا آنسة..

قالها مرة، وعلى ما يبدو أنه أراد أن يستفسر عن شيء ما، لكنها ولسوء حظه لم تسمع شيئا، ما كان يتردد في عقلها نبرة صوته، وتأكد بداخلها، هو هو إنه صوته..

ظل ينظر إليها منتظرا إجابة، وبلا وعي هو أيضا شعر بارتباك شديد وكأنه أول مرة في حياته يسأل فتاة، فقال لها مكررا السؤال : "أ.. ألديك أي معلومة؟"

فهزت رأسها وقالت ببطء : لا!

ابتسم لها وقال : أشكرك..

كان مضطربا، لكن ليس بقدر نقطة من بحر اضطرابها

إلا أنه حين أدار وجهه أخذ كل ما في داخلها من اضطراب، فخرَّت هي على المقعد عاجزةً عن الحراك أو حتى الوقوف..

لقد مر محمد أمامها كالحلم، لحظة، أو كذبة، أو حتى وهم أو سراب

لم يكن حضوره عاديا..

لقد كان مجرد حلم أو خاطرة تتشكل في ذهنها، فتخيلوا حجم الدهشة والغرابة لو تمكنا من أن نرى أحلامنا ماثلة أمامنا !

لقد كانت تحتاج فقط لأن يشد على يدها حتى يكسرها أو حتى يصفعها، لتتأكد من أنه كان موجودا حين يغيب كلما تألمت..

***

_5_

ركبت الحافلة..

لم تقرأ كتابا كعادتها، لم تسمع الأذكار المسائية وترددها، لم تضع موسيقى حزينة أو أغنية تحبها.. لم تكن قادرة على التفكير بأي شيء، كانت غارقة، غارقة تماما، وكأنها سمكة في محيط هادئ، تتحرك كما الأرواح بلا شعور ولا صوت، وحين وصلت بيتها، تسللت لغرفتها بهدوء دون أن تلقي سلاما أو تنطق بأي حرف، لم تكن لديها أدنى رغبة بالحديث، أو لنقل لم تكن تملك أدنى قدرة لتسيطر على رغباتها..

استوقفها والدها الذي تعجب من حضورها الهادئ وتسللها بهدوء وكأنها أرنب وديع يزحف في زوايا الطريق خشية أن يلحظ وجوده أحد

قال : وعليكم السلاااام !

نظرت إليه وابتسمت، ثم أرخت أكتافها وحولت مسارها نحوه قائلة : السلام عليكم.. لم أكن أعلم بوجودك..

قبلت يده ثلاث مرات ورأسه..

فقال لها : رضي الله عنك غاليتي..

وبعد أن نظر لوجهها المصفر سألها : ما بك ؟

المشكلة أن والدها سريع الشعور بها، هو رجل صالح جدا وكثيرا ما يرى منامات تخبره عن الذي سيحدث، ويخبرها بذلك دوما ؛ وبلا وعي جعلها ذلك تجفل وتبلع ريقها، خائفة من أن يعلم والدها عما يحدث معها..

قالت له وهي تحاول أن تؤكد له أنها بخير: لا شيء لا شيء، فقط رأسي يؤلمني منذ الصباح.. ثم استأذنته سريعا لتذهب إلى غرفتها..

كان وقت صلاة العصر حين وصلت، توضأت ثم بدأت بالصلاة إلا أنها لم تكن حاضرة فيها كما يجب، كان عقلها مشغولا به، ولكنها كانت بأشد الحاجة لأن تحدث الله، أن تسأله عما يحدث معها، وحين سجدت، انتظرت أن ينطق لسانها بشيء، أن تخبر الله بشيء أو تسأله عن شيء، ظلت ملجمة تماما، كل ما بداخلها كان مشوشا، إلا أنه الله، ولم تعتد أن تنسحب من صلاة لها إلا وقلبها يشع طمأنينة، أطالت السجود كثيرا، ورغم ذلك ظل الصمت يخيم عليها، حتى سقطت من عينها أول دمعة، توالت فيم بعد الدموع دمعة تلو الأخرى لم تنطق، لكنها ظلت تردد " يااارب.. يارب" أجهشت بالبكاء وهي تسأل الله أن يتلطف بها، أن يكون معها ويرشدها للصواب، لا تريد أن تقترب منه ولا تريد أن تبتعد، لا يمكنها فعل شيء أبدا..

سجدة تلو الأخرى حتى إذا وصلت الأخيرة، جفت دموعها، وطمأنينة سكنت قلبها، عرفت أن الله سيتولى عنها كل شيء، وقررت أن لا تفعل شيئا

ولا تقرر شيئا موكلة كل أمرها إليه وحده..

رفعت سجادة الصلاة جانبا ورمت بنفسها على سريرها البارد، مستلقية على ظهرها؛ فإذا بجوالها يصدر صوت إشعار رسالة..

ليست ممن يجيبون على الرسائل سريعا، لكن لعثمة أصابت نبضها، وقبل أن تفتح الرسالة لتعرف هوية المرسل اعتدلت بجلستها سريعا، وكأنها كانت تدرك أنها منه !

وصلتها رسالة

السلام عليكم..

كيف حالك سارة؟، أعلم أنك قد طلبت مني ألا أرسل لك شيئا، وأني وعدتك أن أقوم بحظرك كما أردت، لكن..

أريد أن أتحدث معك قليلا إن سمحت لي بذلك!

كان مؤشر وصول الرسالة يكتمل، وكانت سارة تقرأ لكنها لم ترد !

انتظر قليلا ثم أرسل لها: أمر مهم !

اكتمل المؤشر أيضا مما يعني أنها تقرأ ذلك

لما رأى صمتها، خشي أن تقول أي شيء واستغل ذلك سريعا ليتمكن من قول ما أراد فأرسل:

لا بأس إن كنت لا ترغبين بالرد، فقط أردت أن أخبرك أني مؤخرا قد وصلت لبلدك، سأكمل دراستي هنا.. ثم صمت لبعض الوقت، كان متوترا جدا، لا

يدري كيف يسألها إن كانت تلك الفتاة التي سرقت تفكيره منذ الصباح هي أم لا، فالسؤال سيبدو قمة بالسخف لعدم منطقية الحدث أولا ولعدم عقلانية السؤال ثانيا.. فأتبع :

سارة.. لقد حلمت بك صباح اليوم، كنت بطول متوسط، ترتدين جلباب مقلما، وحجابا لونه مائل للبني..

عيناك مائلة للسواد وبشرتك حنطية.. فهل هذه أنت؟!

قال كلماته السخيفة والمضحكة جدا.. ولكنها لم ترد، وخشي حقا ألا ترد، فبدأ يقرأ رسائله الغبية ويصُرُّ على أسنانه، ونبض قلبه يضطرب، لا يدري كيف ينقذ نفسه أمامها الآن..

بينما ظلت هي فاغرةً فاهها، تقرأ وتعيد وتكرر ما قرأته، ثم ضحكت، ضحكت بصوتها المكبوت منذ الصباح مع تنهيدات متتابعة، نظرت لوجهها بالمرآة اقتربت ثم بدأت بتفقد نفسها، نعم حنطية فوجهي محروق من الشمس، وعيناي بني داكن لكن كيف سيميز هو ذلك، نظرت لحجابها وجلبابها سريعا وضحكت، ثم عادت للهاتف سريعا، لقد كان ما يزال متصلا. أرسلت له رسالة أكثر غباء وسخفا من رسائله كلها :

في مبنى القبول والتسجيل!

قرأ الرسالة فورا، ولشدة صدمته قفز من مكانه ووقف وهو يضع يده على وجهه ويردد بصوت أشبه بالهمس : يا إلهي، إنها هي، كنت أعرف.. كنت

أعرف

فرد عليها: قلبي بالكاد ينبض، لقد كنت أنت إذن .. يا إلهي..

لا أصدق ذلك حقاا لا أصدددددق

الحمد لله، الحمد لله

كان مؤشر الرسائل يكتمل سريعا

لكنه لم يكن قادرا على أن ينطق أو يكتب أو يفعل أي شيء

أرسل لها :

مضطر للذهاب الآن عن إذنك..

وأغلق هاتفه، وهو يركض سريعا، دون أن يعرف إلى أين كان يريد أن يخرج تلك الطاقة التي ستقتله، وينظم نبضه المضطرب، حتى إذا وصل سكنه الجامعي توجه للمصلى وسجد لله شكرا، وهو غارق بدموعه

كان بحاجة للبكاء لله، فهو وحده من يعرف ماهية شعوره، وحده من سيدرك نبض قلبه

وكما كانت تفعل منذ لحظات لم يردد في سجوده سوى " ياااااااااااارب "

***

_6_

"كيف أنت !"

هذا ما أرسله محمد لسارة ليلة ذاك اليوم، بعد طول تفكير وقلق وارتباك وانشغال، وبعد أن كتب لها ألف جملة وحذفها شاعرا بأنها لا تناسب الموقف، كانت رغبة محادثتها تملؤه، وبالرغم من ذلك فلم يكن يجد ما يقوله، كشخص عطش في صحراء يتمنى لو يشرب بحرا بأكمله، لكنه لا يجد حتى قطرة ماء..

أرسل الرسالة في تمام الثانية عشر ليلا، كان يريدها أن ترد على رسائله شوقا وفي ذات الوقت أن لا ترد خجلا من أن تشعر بقلبه في هذه اللحظات..

لم ينتظر سوى بضع لحظات كان تخطيط نبضه يرقص بعنف وتباين كبير بينما يبحلق محمد بالشاشة ويصر على أسنانه

بدأ بترتيب أنفاسه وضبطها ثم نظر نحو الشاشة وبدأ يكتب

"سألتك كيف أنت وليس كيف حالك، لأني لا أريدك أن تخبريني بأنك بخير..

أريدك أن تخبريني بتفاصيل نبضك، وما هو رأيك فيما حدث !

أشيري علي فأنت الملهمة صاحبة الأحلام وما أنا إلا دمية معلقة بخيوطك، فدليني إلى ما يدلك إليه قلبك الآن.."

أرسلها ثم أتبع..

" أنا لا أجرؤ صدقيني أن أقول لك شيئا مهما كان بسيطا العلة بي أدري، لكن الأمر الذي لا مفر منه..."

اكتمل مؤشر الرسائل فسيبت حروفه يداه وتلعثم نبضه، ثم أتبع "ثمة بالقلب لك نبضة مختلفة، مختلفة جدا "

أرسلت له:

" مساء الخير محمد، لفتني سؤالك " كيف أنت "، ولكني لا أجده سؤالا معقولا في وضعي، أنت أدرى بما حدث ويحدث، قد أريد أن أكرر السؤال عليك وأسألك " كيف أنت !"

لكني أجده سؤالا ساذجا فأظن ما أنت هو ما أنا بهكذا موقف!"

رد عليها:

" أيمكننا الحديث بلا عقل قليلا، بعض من الجنون الذي أصابني قد يصلك، وكم أتمنى أن يصلك بشكل لائق.."

لم تعقب فأرسل :

"أريد أن أراك غدا "

فسألته باستنكار :

"كيف !"

فأجابها : " لا تقلقي لن أطلب أن أقابلك في مطعم أو مقهى، أريد فقط أن أراك ثانية غدا في مبنى القبول والتسجيل، وبذات المكان الذي كنت تجلسين

فيه"

فقالت بشقاوة : "لماذا تريد أن تراني؟!"

ضحك وحك رأسه باحثا عن رد ثم كتب:

" قلمي سينفد منه الحبر غدا وأردت أن أطلبه منك فقط "

فقالت :" وأنا لن أحضر قلما "

فقال : "ستكون فرصة أعظم لمحادثتك لمدة أطول!"

وأتبع في رسالة أخرى..

"أريدك أن تعرفي فقط أني خجول جدااا جدا، وأني أجاهد نفسي معك لأنطق، فلا تحمليني فوق طاقتي بشقاوتك "

فردت: "سأحاول أن أحضر في ذات الوقت، فأنا أيضا أحتاج لأن أراك ثانية لأصدق أنه لم يكن أحد أحلامي..

تصبح على خير "

ردد في عقله : " أي خير إن كنت ستذهبين الآن، مازال لدي الكثيير لأقوله "

لكنه خجل كالعادة وأرسل " وأنت من أهل الخير عزيزتي "

قرأت سارة الرسالة الأخيرة، وظل عقلها يردد كلمة " عزيزتي" وقلبها يكرر صداها حتى نامت وحلمت به..

***

_7_

نسائم شوق لم تعتد عليها سارة، بدأت بغزوها في كل صباح، لكن ذاك الصباح كان مختلفاا..

ذهبت سارة للمكان متأخرة، حتى تمكنت من مفارقة صديقاتها اللواتي كن يصرن على مرافقتها على غير العادة، وكأن هذا التأخر كان أيضا أمرا ربانيا لغاية ما..

شعرت سارة بحزن أو كبت داخل صدرها لمجرد تفكيرها أثناء سيرها أنه قد يكون مل الانتظار وذهب..

وحين وصلت ازداد ذاك الشعور إذ لم تره جالسا في مكانه، بدأت تسير نحو مكانها وهي تحاول إخفاء ارتباكها لكن وجهها المحمر وملامحها العفوية قد فسرت كل شيء، لم تتوقف عينيها عن التجول في قاعة التسجيل يمنة ويسرة، حتى نظرت إلى هاتفها والدمعة تكاد تسقط..

جاء صوت محمد بجوارها :

"السلام عليكم.."

نظرت إليه وعينيها تتلألأ حزنا، وتكاد تبكي..

فأكمل بصوت أقرب للهمس وهو يبتسم ويتظاهر بحك رقبته بخجل وشقاوة وارتباك :

"لقد نفذ الحبر منذ نصف ساعة.. للحظة شككت بوجودك حقا، وظننت أنني من كنت أحلم حين رأيتك البارحة "

أنزلت سارة عينيها، لتخفي الدمعة التي ما استطاعت الاختباء أكثر..

فتلعثم نبض محمد قائلا : " أنا تائه أيمكنك أن تدليني على بيتك!"

نظرت سارة له سريعا بتعجب، فأفاق من نظراتها قائلا :" حبر، حبر.. قلم حبر، هل أجد معك ! "

فتحت حقيبتها وأخرجت قلما سائلا ومدته له، شكرها ثم جلس بالجهة المقابله يسترق لها النظر، كما هي أيضا، وما أن تتلاقى أعينهما حتى يغض أحدهما بصره بكل خجل، وابتسامة خجل خفيفة تكسو وجنتيهما..

انتظرت سارة أن يعيد القلم، لكنها تأخرت عن موعد عودتها للمنزل، خجلت من أن تطلبه فغادرت المكان دونه..

بينما محمد ظل جالسا بمكانه يراقبها حتى إذا خرجت من المبنى، حمل حقيبته على ظهره والكتاب الذي بيده ولحقها دون أن تشعر حتى وصلت بيتها..

ركب الحافلة التي ركبتها، كانت واقفة في مقدمة الحافلة مع جمع من الفتيات، تضع في أذنها سماعة، وتنظر عبر زجاج الحافلة إلى الطريق بشرود، أما هو فقد كان واقفا بالممر مع حشود من الشباب، يرتدي نظارة شمسية كالأبله، ليتمكن من أن يختلس النظر إليها بلا أن يثير انتباه أحد ممن حوله..

لم يكن يعرف أي شيء عن هذه المدينة سوى أنها المدينة التي تقيم بها سارة، فقد أمضى قريب الساعة والنصف في تلك الحافلة المكتظة بالناس..

توقفت الحافلة ونزلت سارة، لكنه لم ينتبه لها، إلا حين تحركت، حينها بدأ ينادي على صاحب الحافلة ليتوقف، دفع الأجرة ونزل سريعا معتذرا منه لعدم انتباهه..

وأخذ يركض ليدركها، فقد خشي أن تضيع منه، وأن يضيع هو هنا، فقد كانت دليله لا قلبا فقط، إنما جسد أيضا..

كان يسير بغرابة، فبينما هو مركز عليها، كان يلتفت يمنى ويسرى ويتأمل وجوه الأطفال، ومنظر الحمام الرمادي بالسماء، ويقرأ أسماء اللافتات، وفجأة قاده الفضول ليسأل أحد المارين عن اسم هذه المدينة، وبعد ذلك بحث عنها ليعرف عنها أكثر، فوجدها أكبر ثان محافظة بعد العاصمة التي يقيم بها اكتظاظا بالسكان..

وصلت سريعا لبيتها بالرغم من أن المسافة ليست بالقليلة، لكنها كانت سريعة جدا..

ما لفت انتباهه أثناء سيره خلفها أنها وبالرغم من حسنها، إلا أن جميع من في المنطقة كانوا يلتزمون الصمت حين تمر، وأكثر ما استفزه منهم، مجرد نظرات توصلها حتى آخر الطريق من بعضهم..

كان الأمر مطمئنا جدا، وأحب محمد هذا الوسط الذي تعيش سارة فيه..

حتى مرت سارة بجوار هؤلاء الرجلين المتشابهين بالخلقة..

توقف الأول أمامها حين رآها على أحد جانبي الطريق وظل يبحلق بها بطريقة لافتة جدا، ممسكا بأكياس الخبز

فإذا بأخيه يركض باتجاهه ليقف بجواره، بطريقة ضيقت طريقها

صار محمد يسير ببطء شديد، يحاول أن يستوعب ما يراه أمامه، وقلبه ينبض برأسه كل خطوة تخطوها بنبضة، حتى مرت بجوارهما سريعا ثم نزلت الدرج الذي يليهما ببضع خطوات بسرعة وكأنها تركض..

مشى سريعا ليلحقها وعيناه مثبتتان بالرجلين وهو يحاول تمالك أعصابه كي لا يرتكب جريمة بهما الآن، فقد اتضح له أنهما خفيفا العقل غير سويين، ورغم ذلك فحين مر من جانبهما توقفا عن الهمس عنها وكأنهما اشتما رائحة الحريق التي نشبت في داخله..

نزل الدرج وهو يحادث نفسه ويشد على يديه : اهدأ يا محمد، اهدأ..

محاولا أن يتنفس بصورة طبيعية

وصلت سارة باب بيتها فرجع للوراء قليلا كي لا تراه، وانتظرها حتى أطبقت الباب..

تمشى قليلا في حيها، مارا بباب بيتها أكثر من مرة، مل المكان وشعر بالتعب، فعاد للشارع في الأعلى ليشتري شيئا باردا ليشربه ولسوء حظهما كانا لا يزالان واقفين بالأعلى..

حاول أن يتجاوزهما وهو ذاهب للسوبر ماركت، لكنه ما استطاع وهو عائد إذ رآهما يتهامسان عليه

وقف أمامهما، ورفع نظارته، فخافا وأمسكا ببعضهما البعض ثم مد أحدهما له يده وقال : أنا زينغو

ضحك، ثم قال لهما وهو يمد يده : يا أهلا، لا تخافا لست غاضبا فقط أردت أن أسلم عليكما..

قال دعونا نمشي، مشى فظلا واقفين، نظر نحوهما، ثم عاد لهما وقال :هل هي جميلة !

فتح الرجلان فاهيهما بعبط، ثم سار رينغو وقال وهو يشير بيده نحو الدرج :

ها هذه !

هي !

فهز رأسه : أهاا !

قال : لي، لي

لقد ضحكت لي أنا

فجاء زينغو مسرعا نحوه ودفعه وقال : لي أنا، أنا وليس لك..

فقال مستنكرا : وهل ضحكت لكما !

قال كل واحد منهم مدافعا عن نفسه : لي أنا أنا

فابتسم وقال لهما بحدة : إن مرت من هنا مرة ثانية ووقفتما، سأضربكما..

ابتعدا عنه قليلا ثم تنحيا جانبا، وارتدى هو نظارته ونزل مسرعا نحو حي سارة..

كان محمد قد خطط مسبقا لأن يتتبعها لبيتها، وقد كان هذا هو السبب الذي دفعه أن يطلب منها لقاء بلا حديث، فقد أراد أن يحادث والدها، ويجالسها بعلمه..

ظل ينتظر حتى سأله أحد الجيران، عن سبب وقوفه وأجابه أنه يريد مالك هذا البيت متحفظا عن السبب

وفي أثناء الحديث وصل العم أبو سارة لمنزله في حافلة شخصية زرقاء اللون، مر العم بهما بعد أن ركن حافلته، فقال له الشاب : السلام عليكم عمي أبو أسامة

لقد أراد الشاب محادثتك..

اصفر وجه محمد، لكنه استجمع قواه وذهب إليه، رد العم السلام عليهما ثم قال له : تريد أن تحادثني أنا !

فاقترب محمد قائلا : نعم يا عم، لقد أردت أن أحادثك إن لم يكن لديك مانع ؟

فقال : يا أهلا بك بني لكن بخصوص ماذا ؟

قال : ألن تستضيفني ؟

فاعتذر مبتسما: أعتذر أعتذر تفضل..

صعد الدرج ولحقه محمد والأفكار ترتجف في داخله، وقد أوشك أن ينسى لمَ قد جاء هنا. كان لهيئة العم أبو أسامة دور عظيم في ضياعه، فقد كان ملتحيا بذقن قصير، شعره ما بين الأسود والرمادي، عيناه سوداء أسمر بعض الشيء، في وجهه سمة المصلين لكثرة السجود، صوته رجولي معتق، وحاجباه معقودان حاد النظرة..

وقف العم على باب البيت مستأذنا أهل البيت، ثم قال له: تفضل يا بني..

يا أهلا بك.

جلس محمد على الأريكة، فجلس العم قبالته وهو يحاول فك عقدة حاجبيه وقال : ها يا...

فرد محمد مكملا : محمد محمد

فرد عليه : خير الأسماء

ونظر العم نحوه باهتمام

فابتسم محمد وقال : اللّٰهُمَّ صل على سيدنا محمد، لقد جئتك ياعم في حاجة، وأتمنى أن لا تردني فيها إلا مقضية، فوالله قد ساقني الله من بلد غريب ووقت عجيب وحدث أعجب.. وما للعقل فيما قد جئتك فيه من يد

فقد تظن بعد حديثي أنني مجنون يحاول التعقل

وقد تراني شابا راشدا بعد عمر جاء هنا ليراهق

لكنني أريدكم أن تتلطفوا في حكمكم، ففي سيماكم وجدت طمأنينة قلبي، ووالله يا عم ما أنا بطائش ولا بذي خلق رديء، وما عرفني الناس إلا خلوقا، وما أنا إلا ابن لأم وأب صالحين..

وما أصل الطيش والجنون في فعلي إلا أنني شئت ألا أدع للشيطان في نفسي من مكان..

فقال له العم : لعله خير بني، خلقك واضح في وجهك واحترامك جلي في قولك وتصرفاتك..

اطلب ما جئت لأجله، وبإذن الله لن أردك خائبا ما استطعت..

تشجع محمد وكلمات قلبه المضطرب تصطف بانتظام لتلقي نشيد السلام القلبي..

قال : يا عم..

إني طالب في الدكتوراة، جئت من بلد غريب، وعائلتي متوسطة الوضع، لي أخوان اثنان وأخت وأم وأب، أتيت لهنا لأتم رسالتي وأعاود بلدي لأكمل نصف ديني وأتزوج

هذا ما كان العقل يرسمه، قبل أن يحدث ما حدث وأرى ابنتك المصون..

رفع العم حاجبيه وقال : وكيف رأيتها !

فأجاب : لا أدري، رأيتها ولحقتها وانتظرتك منذ العصر حتى وصلت للتو، لأطلب منك أن تسمح لي أن أجالسها بعلمك، وفي ظلك ولو لمرة واحدة،

وأعدك بعد ذلك أن أصوم عن حديثها ولا أفطر عنه حتى أستأذنك بالحلال بإذن الله، وبحضور والداي وعائلتي.. فما قولك

نظر العم إلى الأرض بحيرة وكأنه يجمع كلماته، فطرق الباب

ذهب العم وأخذ ممن في بيته الشاي، وقدمه له ثم قال: اسمع يا بني، لا أريد أن أردك خائبا، لكنك تطلب أمرا مستحيلا لسببين

فقاطعه : كان سيحول سهلا لو أردته بالحرام، اعتبرني ابنك يا عم، وتفهم حاجتي..

فأكمل : مستحيل لأنني لن أدخل رجلا في حياة ابنتي قبل أن تنهي دراستها.. ومستحيل لأنني قبل أن أعطيك موافقة لأمر كهذا عليك أن تطلبه من آبائها السبعة، أي أعمامها ولن يسمعك أحد مادامت عائلتك غير حاضرة..

أقدر لك إعجابك بابنتي إن كان لخلق لديها، لكن الأمر لا يتم بصورة كهذه..

وانتهى الحوار بعد جدال طويل، تكلل بالرفض.

وحين وقف محمد على الباب مودعا، شعر أن الطمأنينة كلها نزعت من قلبه، واجتاحته رغبة ملحة لمحادثة سارة، لم يشأ أن يحدثها كتابة، بل تمنى لو أن العلم توصل لخاصية تمكنه من تحميل سارة ولو لدقيقة واحدة، يغمرها بها لعله يسترد شيئا مما فقد.. كان الوقت متأخرا، والليل أوشك أن يحل..

ولكن محمدا لم يكن يعرف طريق العودة، فدليله خلف الجدران لا يدري بشيء مما حدث، فقرر محمد أن يظل في الشارع الذي يطل عليه بيتهم من الجهة المقابلة، إذ كان مهجورا الا من بعض البيوت المتفرقة، وأسفله جبل كبير..

ظل ينظر نحو البيت محاولا أن يميز غرفة سارة، فتذكر أنها ذات مرة ومنذ زمن كانت قد نشرت صورة لشرفة بنفسجية الأضواء، فشعر أنها شرفتها جلس بالأسفل مكسور الخاطر..

وأرسل لها :

أحتاح أن أحادثك، من بعد إذنك

حين تتفرغين لذلك أرسلي لي.. بانتظارك..

_8_

عادت سارة من الجامعة منهكة جدا، عقلها يجعلها بطيئة الحركة، ثقيلة الخطوة، مما جعلها تخلع ملابسها وترميهن جانبا، بلا أن ترتب شيئا، ورمت بنفسها في حضن سريرها، عازمة أن لا تفكر بمحمد ولا بشيء مما يحدث، وبكل الأحوال فقد فعلت ذلك حين ركزت تفكيرها بأنها لا تود التفكير به.

لا يزال محمدا في الشارع الموجود أسفل غرفتها، يجلس على حافة الجبل ويقرأ كتابا، وفي كل دقيقة يفكر بغبائه إذ قرر النوم بمكان كهذا، لكن لم يكن الأمر بهذا السوء فحقيبته التي يحملها دوما على ظهره أشبه بحافلة متنقلة، فيها شطيرتان، وعبوة ماء كبيرة، وبعض كتبه التي يقرؤها ويدرسها كثيرا، وصورة عائلته التي لم يحدث من قبل أن فارقته لحظة واحدة، فهو كثير التبجيل لعائلته ومنتمي جدا لهم..

لكن محمدا، كان يخطط لأمر مختلف، فحين قرر أن ينام هنا كان يظن أن سارة ستحادثه باكرا وأنه سيستغل الليل بأكمله وهو قريب منها ويحادثها، لكن سارة لم ترد ليلتها فقد كانت غارقة معه بالأحلام..

الفرق بينهما أنها تزوره بلاوعي، وأنه يزورها بكل حواسه ووعيه..

في الساعة **35** :**11** دقيقة، ضجر محمد وقرر أن يذهب لشراء بعض القهوة من الشارع الرئيسي، عله يعدل مزاجه، أما النوم فكان قد أخذ إجازة منذ الصباح، فلا يملك أدنى رغبة بالنوم، وحتى في قراءته كان شارد الذهن ينظر

لهاتفه كل ثانية متتبعا آخر وقت كانت نشطة فيه تلك النائمة، فما إن تحضر سارة في عقله حتى تتبخر قدرته على التفكير بأي شيء آخر..

وفي هذه الأثناء استيقظت سارة، كانت مستلقية على ظهرها، تراقب سماء غرفتها المملوءة بالأضواء والنجوم المزينة، لا تشعر بأرجلها مطلقا، وأنفاسها مخطوفة، لا تسمع شيئا من حولها سوى دقات قلبها المتسارعة، وكأن جسدها في تلك اللحظات كله قلب.. قلب فقط

وظلت تحملق في سقف الغرفة وتعيد شريط حلمها الغريب أمامها مرة أخرى..

بالعادة تحلم سارة بمحمد، مجرد حلم يجمعهما، يتصرف فيه محمد بلطف ورقة معها، وقد يقول شيئا لطيفا لها، لكنه ولا في أي مرة كان يتصرف معها على أنه حبيب لها !

بخلاف هذه المرة، إذ رأته في منامها، يجلس بجوارها في أحد أروقة المدرسة مع صديقتها رؤى وخطيبها ياسر اللذان كانا يحبان بعضهما منذ الصغر وتزوجا فيم بعد، وكان ياسر يقول كلاما جميلا لها ويلاطفها، فغضب محمد لذلك، بينما رؤى لم تكن آبهة بالأمر وكأنها لا تسمع، فقام محمد بضرب ياسر بعد شجار عنيف، وانصرفا بعيدا عنهما

ثم استأذن محمد وكاد أن يبتعد، وإذ بسارة تناديه، أدار وجهه لها محاولا أن يتمالك أعصابه،

فقالت سارة وهي تعبث بأصابعها بخجل :

لمم يكن ياسر يقصد أنه يحبني

فتغيرت نظراته إلى نظرات غضب

فصححت قولها سريعا وصوتها يرتجف : أأقصصد لم يقصد أن يغازلني.. لقد.. لقد

صر على أسنانه ثم قال : لا تدافعي عن ذاك الوغد.. أفهمت !

فقالت سريعا : حاضر، حاضر.. لكن اهدأ لا تغضب

فصرخ مقتربا منها : كيف أهدأ، بأي حق يقول لك ذاك الوضيع ما أجمل غمازاتك الخفيفة التي تبرز حين تضحكين ! !

والله إن كررها مرة ثانية ونظر لوجهك مجرد نظرة، سأقتله بيدي، وتذكري جيدا قولي هذا.. ثم أشار مهددا له سأقتله..

انتفضت سارة خوفا وقالت :

لكنه.. لكنه هو صديقي أيضا !

طارت ذرات العقل من محمد وقال : الحقيه إذن..

ثم صرخ بوجهها : هيا!!

وظل مبتعدا عنها..

بكت سارة وهي متسمرة في مكانها

فخرت قوى محمد أمامها وعاد لها، وقف أمامها متكتفا لا يدري ماذا يقول وقلبه يتقطع وجعا

قال : اهدئي يا سارة، أنا آسف.. والله لم أقصد إبكائك

نظرت إليه والدموع تملأ عينها : أنا غبية لأني أتيتك، ألم تقل الحقيه.. سألحقه، على الأقل هو لا يصرخ بي، ولا يكره..

كادت تقولها لكنه ضمها..

شد عليها وقال : إني أغاااااااااار

ضمها أكثر رافعا إياها لصدره وبكى قائلا : والله يا سارة أحبك..

ما أن وصلت سارة لنهاية حلمها حتى انتفض جسدها، وأغمضت عينيها اللتين لم ترمشا حتى هذه اللحظة..غطت رأسها بغطاء السرير واحتضنت نفسها في قلبه

كانت تهمس بصوت مسموع بعض الشيء:

لا أريد، لا أريد حبا

يارب ما الذي يحدث لي..

رج هاتفها بإشعار رسالة، كان محمد قد عاد ممسكا بفنجان قهوته المرة ويناظر غرفتها. كتب فيها :

أتمنى أن لا يكون انتظاري بلا معنى اليوم تحديدا..

لم تكن من عادته أن يلح بإرسال رسائله كثيرا، لكنه قد قال..

قال بأنه يحبها، وأي عذر يمكن للمرء أن يحظى به بعد ذلك..

فما الحب إلا تصريح لصاحبه بتجاوز كل عاداته وتخطي كل ما يفترض به فعله..

ما الحب إلا رخصة وضوء أخضر للعقل والقلب ليقترفا كل ما أرادا بلا قانون ولا حساب..

ردت سارة على محمد :

- أنا هنا..

لقد كنت نائمة أعتذر

- المهم أنك أفقت، نوما هنيئا..

- أهناك شيء !

- أردت الاطمئنان عليك فقط..

هل أنت بخير ؟

- اهاا.. بخير

شكرا لك

وذهبت شارة الاتصال

ضرب محمد رأسه وهو يقول محمد : ما أغباني..ستنام ثانية !

خاف من فكرة نومها مرة أخرى فأرسل

- وأيضا..

انتظر حتى اتصلت فأتبع

- سارة.. أيمكنني أن أطلب منك طلبا

أعلم أنه ليس من حقي ولكني أحتاج ذلك جدا

- تفضل !

- أريد أن أهاتفك..

شكت سارة فيما قرأت، وتحاول جاهدة أن تفصل بين محمد هنا ومحمد في أحلامها، لكن اضطراب قلبها عاد لما كان عليه إثر حلمها فقالت

- لا..

بالطبع لا.. كيف ستهاتفني !!

ولمَ !

- سارة لا ترهقيني بأسئلتك، فأظن الإجابات لا تحتاج توثيقا باللسان!

أنت تحلمين بي ليلا، وأنا أطالعك بالنهار، أنت تسمعين صوتي وترينني، وأنا لا أجد سبيلا لذلك .. بربك.. هذه الليلة فقط

- محمد.. لا تحاول .. الأمر مستحيييل

- لكن لماذا ؟

- بعيدا عن كل الأسباب والعادات والدين التي لا تحتاج توضيحا، أنا أنام بجوار أختي الصغيرة، ستقتلني لو سمعتني أحادثك ليلا!

- فقط دعيني أتحدث أنا

اسمعيني ولا تنطقي بشيء، لا أشعر أن الكتابة قادرة على البوح بما لدي أريد أن أخبرك بكلام أصدق من الحروف.. بربك سارة الليلة فقط !

- سأفتح السماعة لكني لن أنطق بحرف واحد..

- يكفي وجودك طيفا أشبه بالحلم بجواري بهذه اللحظة، ردي ولا تنطقي مكتف والله باللاشيء منك..

_9_

وضعت السماعات بأذنيها واتصلت به، بينما هو ينتظر اتصالها بفارغ الشوق، قلبه يكاد يسقط بأي لحظة ينظر للأرض ويمشي مسرعا ذهابا وإيابا ويراقب شاشة الهاتف منتظرا اتصالها، وحين رن الهاتف، بلع ريقه ونظر للسماء قائلا : يااااااااااارب، لا تدع بقلبي حسرة يااارب

أخذ نفسا يبدد سراب الارتباك داخله، ثم سحب الشارة الخضراء ليرد على اتصالها..

صمت قليلا، وكأنه يبحث عن صوتها.. وقلبه يدور به

نبضات قلبه اجتاحته وتسارعت، وحين خشي أن تسمعها

قال : "اممم.. السلام..عليك .. امم كيف حالك ؟

هه، أعلم أنك لن تجيبي لكني سأكتفي لو أجبت بعقلك خفية."

ثم أخذ نفسا آخر، وكأن كل الأكسجين الذي يحيط به لا يكفيه ثم أتبع :

امممم، اسمعيني سارة، لا تقولي رجل !

فأنا أيضا خجول بعض الشيء، ولربما لأنك أول أنثى أحادثها لغاية في قلبي، فإني مرتبك جدا وأطرافي ترتعش لكني.. لكني أحتاج أن أبوح لك..

ولك أن تكترثي أو لا .. لك أن تديري ظهرك لي، أن تقولي أي شيء لا تأبهي ولا تشعري بالشفقة أو الذنب نحوي، فإني لا أرضى أن أكون محط ضعف على أية حال..

صمت قليلا، وأبعد الهاتف عنه، شعر بغصة في قلبه، وقدميه ما عادت قادرة على حمله، فجلس أرضا وأسند ظهره على امتداد جدار بنايتها ونظر للسماء ثم قرب الهاتف وبدأ يقول :

ااه يا سارة .. لا أدري حقا كيف يمكنني أن أخبرك بما في قلبي بحق أتعلمين، لقد كنت منذ صغري

خجول جدا، ولم أجرؤ يوما على الوقوف أمام أنثى، ليس خوفا، لكن لا أدري لمَ، وبالرغم من أني كبرت ونضجت بما يكفي إلا أنني أواجه صعوبة بالغة بأن أحادث أنثى بمشاعر لطيفة أو أغازلها، أظن للدين دور كبير بهذا داخلي، كنت.. أنتظر أن تزوجني أمي بالفتاة التي تشهد لها بحسن خُلقها وخَلقها، فبصراحة لست مستعدا لأن أتزوج فتاة قبيحة بأي من الجانبين، أنظر للأمر بأنه حق لي، ولربما وعد من ربي إذ أني صمت عن الحرام دهرا، لأجل لحظة حلال تعوضني بصدق.. حين أخبرتني بالأحلام، شعرت بشعور غريب جدا، وباتت سيرتك الشغل الشاغل لعقلي وقلبي، كنت أنام وأفيق قلقا عليك، لن أخفيك ليس حبا.. لست أعرف جيدا ماهية الحب، لكني لا أشعر أنه كذلك .. قد يكون انشغال، أو رغبة..

لكني لم أكن أشعر بانتزاع روحي حين تغيبين !

كنت أعيش بصورة طبيعية

وبالرغم من ذلك، فقد كنت أشعر بشعور غريب، وجرأة غير معهودة في عدم خوفي من الاقتراب منك، كنت أفهم من سكوتك أني اقتربت منك، وقد أكون أمسكت يدك أو ضممتك لكني كنت أصمت كي لا أزيدك حرجا وتوترا، لقد كنت أعيش أحلامك بشعوري وأزيد مني شيئا، حين أريتك صورتي وفزعتي لشبهي بمن رأيت، كنت أراك، لكني لم أكن أرى ملامحك حقا.. ثم طلبت مني حظرك فقبلت، وقلت هكذا انتهت حكايتي وبالرغم من أنك احتليت جزءا مني إلا أنني كنت أفكر بعقلي أن كف عن ذلك يارجل لم تحادثك سوى لثلاث ليال..

ولن أخفيك أني كنت أذكرك بين الفينة والأخرى وأطردك مني، لأعود لدراستي وقراءتي وأحيانا همي..

ولم أكن أفلح بذلك دائما، لكني وكما أخبرتك لا أمتلك الجرأة الكافية لفرض نفسي على أي أحد.. أما حين رأيتك.. وقبل أن تنطقي ...

تربع وعدل جلسته ثم أتبع :

والله كدت أقسم أنك هي دون أن أسألك، نبضات قلبي كانت تتخبط ببعضها بطريقة مخيفة، وملامح وجهك البريئة خطفتني مني

اسمعيني يا سارة.. والله والله لا تهزئي مني

لكني ورب الكون وقعت بتلك اللحظة بعشقك

اسمعيني أنا لا أجيد الكذب

والله لا أقول ذلك كلاما.. لقد ذهبت وظل قلبي بيدك

لم أتمكن من كبت نبضي، فقد أصبح علنيا، وللحظة كدت أشك أن كل من يراني يسمع همس صوتك ويراك

ليس كذبا وليس شعرا أو غزلا

لكني ورب الكوون فقدت عقلي وما عدت أرى شيئا إلا ملامح وجهك، دفء عينك وحركاتك وصمتك، وإيماءات وجهك

نفث كل الهواء من صدره على الهاتف ثم أبعده عنه

أدمعت عيناه

وقال بصوت يرتجف : لأول مرة لا أتمكن من كتمها

سارة

أنا.. أنا...

أخشى أن أقولها وأسقط إثرها

قلبي يكاد يتوقف ورب الكون

اووووه

أنا أحبك..

صمت، كتم الصوت وبكى

فسمع صوت اضطراب أنفاسها

مسح دموعه ووقف سريعا ليسير عله يقلل توتره، أعاد وضع السماعة ثم قال: لا أعني بذلك أنك مجبرة على البقاء معي، ولا أعني بذلك أنني أجبرك على التعاطف معي أو حبي .. أنا..فقط..أردت أن أقول .. ولا أدري لما !

أتدرين ما الفرق بيننا.. أنت تحلمين بي بالمنام، وأنا أحلم بك واقعا..

صمت طويلا، محاولا أن يسرق منها صوتا، نفسا أي شيء!

وخشي أن تكون قد نامت ولم تسمع مما قال شيئا..

قال: حسنا، شكرا لك..

مهما كان ردك، شكرا لك لأنك أتحت لقلبي فسحة صغيرة ولو كانت بلا حرف منك، ليبوح بما يختلجه، وأظن أن خير ما بالحديث صمتك، فلربما لو نطقت حرفا لضاعت كل أحرفي..

تصبحين على خير يا سارة، أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه وأسأله أن يبعد عنك كل شر، ولو كنت أنا..

أبعد سماعة الهاتف ليقفل الهاتف، لكن رسالة قد وصلته منها، فتحها وقلبه ينبض برأسه وعينيه كتبت بها: "لا تذهب.. ابقَ على الهاتف.. رجاءً"

ضحك وأعاد الهاتف على أذنه وقال :

حاااااضر ... من عيني

والله إني لأسعد من خلق على هذه الأرض بطلبك هذا

أحبك سارة.. والله أحبك

يااارب

ثم صمت

أمسك بزجاجة الماء خاصته وقال :

ليتك هنا لأسقيك بيدي..

صرت أحب الماء لأجلك..

شرب الماء

وقلبه ينبض ينبض ينبض، وما عاد يدري إن كان نبضه خوفا من الآتي أم حزنا أم حبا

كل ما يدركه، أن نبضه لا يردد سوى اسمها

"ساااااارة "

كتب لها : أيزعجك لو أهديتك أغنية !

قرأتها ولم ترد. فقال : آسف..

فردت : لا بأس

فتح اللاب الخاص به وشغل أغنية لتامر حسني :

وأنا جنبك.. حبيبي بجد مش عارف أقولك ايه

معاك الوقت بيعدي محسش بيه

وأي كلام

هيوصف إيه بلحظة بعيشها وانا وياك

كفاية علي تبقى بحضني وابقى معاااك

قرب كمان

من حضني وحس باللي بحس بيه

دنا من زمان

مستني أعيش وياك اللحظة دي

يا حبيبي قول

بحبك

وأنا قولها معاك

حبيبي شوف سنين وايام على حبك بقلبي يزيد

كأني بعيش من الأول بحب جديد

بعدت كتير

وحضنك عنو مهما ابعدت برجع ليه

وقلبي يدوب بآحساسو اللي عايش بيه

قرب كمااان

من حضني وحس باللي بحس بيه

يا حبيبي قول

بحبك ... وانا قولها معاااك

***

_10_

غفت سارة ومحمد أقرب إلى روحها منها، كادت أن تنطق له بحبها، كادت أن تناديه وتهمس له أحبك، لكنها لم تكن تملك حتى صوتها..

لم تكن فتاة خجولة من قبل لم تكن تجد صعوبة بقول شيء أو طرح شيء، ولم يسبق لها أن كبتت في صدرها قولا بهذا الحجم..

كل شيء غريب حولها، شعورها العظيم بات يشككها بأنها كانت تشعر من قبل.. وكأن قلبها قد خلق فيها حديثا، وما كان من قبل داخلها كان مجرد نبض.. استيقظت سارة بعد حلم حملها بجواره، كانت تصلي معه صلاة الفجر يدعيان أن يظلا سويا ولا يفرق الله قلبيهما..

لم تفرق بين الحلم والواقع، فبالنسبة لصباحها الجديد كل ما حدث البارحة كان مجرد حلم، وكالعادة تحاول أن تستفيق..

توضأت وصلت صلاة الفجر، وبعد ذلك وقفت على نافذتها، لتتأمل الصباح كالعادة وتردد أذكار الصباح ليطمئن قلبها، لكنها ولأول مرة تشعر أن جسدها مفتوح ومكشوف بالكامل، وأن الهواء يعانق قلبها لا جسدها. أخذت شهيقا طويلا وزفرت الهواء ببطء..

ثم رفعت يديها نحو السماء وقالت بقلة حيلة : رباه، لا تعلقني بما ليس لي، لست آبه إن أتى وإن ذهب.. لست آبه بقلبي وإن غزاني الشوق فإني أعلم أني قوية بما يكفي لكبت شوقي، ولكني التمست في قوله البارحة حبا عظيما،

فتلطف بنا يارب، فانزعني من قلبه ولا تضره في حبي إن لم أكن له، يسر له أمره واجعل قلبه يزهر بحب جديد..

إنني أخشى أن أكون وجعا في قلب أحد لم يكن له في عشقي من ذنب..

ربي، قد وكلتك أمري وأمره، فارحمنا برحمتك، ولا تضرنا فيما لا نملك، فأنت العليم بما تخفي صدورنا وما تبدي..

شعرت بالبرودة فأغلقت نصف النافذة، وبدأت بتجهيز نفسها للجامعة..

سارة فتاة نقية الروح سريعة التخاطر منذ الصغر، ومن المثير للدهشة دوما أنها حين كانت تفكر بشخص في لحظة ما، تسمع أغنية تلامس الموقف، وحين تكون حزينة تسمع أغنية تروي حالها تماما، كان الأمر يسليها ويواسيها دوما..

لذلك فهي دائما تحب أن تشغل "الراديو" وليس مشغل الأغاني الخاص بها، إذ تشعر أنه يكون أكثر استقبالا لترددات بث مزاجها..

وكالعادة فتحت الراديو على إحدى القنوات التي تتابعها بالغالب كل صباح، كانت المذيعة تلقي التحية الصباحية ككل يوم، ثم بدأت موسيقى لأغنية لم يسبق لها أن سمعتها، ولكنها ولا تدري لما شعرت بانجذاب نحوها، وحين بدأت المغنية بقول: " أنا قلبي ليه حاسس أوي بالشكل ده

هوى الهوى بيعلي إحساسنا كدة

صدقني خلاص صدقت، إني انا حبيت دلوقت

وما كنتش أعرف قلبي هيحبك كده

وكنت فين إنت وكل الحب ده "

جلست سارة على خزنتها متمعنة بها، وبلا شعور مرت كل أحلامها أمامها، واضطربت نبضات قلبها، حالما انتهت أقفلت المذياع سريعا، وبحثت عنها لتسمعها مجددا، وظلت تكررها وتغني معها حتى انتهت من تجهيز نفسها وخرجت..

كان كل شيء مختلف في هذا الصباح، العصافير تحوم حولها وحدها، والجو لطيف جدا، وصوت الأغنية في أذنها لا يزال يتكرر، ثم صوته وكلماته البارحة، أحلامه

لقد كانت تسير بلا أن تشعر باصطدام أقدامها بالأرض، وكأنها تسير مع الهواء بلا أدنى مقاومة

ركبت الحافلة، بالكرسي المجاور للنافذة، وبالرغم من ذلك فإنها لم تر شيئا، سوى صورته، وأحلامها..

لقد كانت روحها تعانقه بلا أن تستأذنها..

في جوارها جلس شاب غريب، لم تنظر إليه، ولم تبال بحضوره، فهذا يحدث كل يوم..

توقفت الحافلة، ونزل الشاب، فوقف شاب من الكرسي الذي يقع خلفها على الجهة الأخرى وجلس بجوارها..

وبالرغم من شرودها إلا أن قلبها اضطرب فجأة ولم تشعر بالارتياح لتصرف ذاك الشاب، فأزاحت نفسها أكثر عنه، ورفعت ظهرها معدلة جلستها..

أنزل الشاب رأسه نحو حقيبته وأخرج منها كتابا وقلما، فتح الكتاب ثم كتب على طرفه بالحبر السائل

أحبك

كانت تعبث بهاتفها حين كتبها، فلمحت الكلمة وتظاهرت بالاستغباء لكن قلبها كان مضطربا جداااا على غير عادته فإذا بالشاب يمد القلم لها بلا أن ينطق

من ذهولها لم تتمكن من السيطرة على رد فعلها، لم تتمكن من أخذ القلم ولا من سؤاله، لقد شعرت بتخدير تام

وبعد دقائق وبلا وعي نظرت إليه فكان

محمد!

***

_11_

بدأت تتنفس الصعداء، ونبض قلبها كان مسموعا، وارتباكها وحمرة وجهها شعر محمد بها، ففتح هاتفه سريعا وأرسل لها:

سارة .. اهدئي

أعتذر لأني جلست بجوارك، لكنني فعلت ذلك لأني لن أحتمل جلوس شاب غريب بجوارك

ابتعد كثيرا عنها حتى كاد يسقط..

ارسلت له :

كيف .. كيف أصبحت هنا !

فرد :

أريد أن أراك في الجامعة لأخبرك بما حدث

نظر ليديها وهما تكتبان بارتعاش. فأتبع:

إن كان وجودي يخيفك سأقف بجوار الكرسي

فردت:

اجلس محمد .. أنا لا أخاف منك..

نظر لوجهها، فأزاحته وتلعثمت خجلا وبدأت تعدل بحجابها

فأرسل لها :

يا حسن الملائكة الذي فيك

بهية أنت كفراشة رقيقة في أول الصباح

قرأت ولم ترد

وأعاد ظهره متظاهرا بقراءته للكتاب ليقلل من توترها

وهو لا يسمع ولا يرى من حوله شيئا سواها. نزلا من الحافلة

فأرسل لها : أريد أن أراك

فردت : استحالة .. لا يمكنني الوقوف مع شاب أيًا كان.

فقال : إذن سأخبرك كتابة

على شرط أن تجلسي مقابلي في مكتبة الجامعة.

فردت : لا بأس

جلسا، وكل منهما يختلس النظر للآخر أخبرها بما قاله لوالدها وبما أجابه، وكيف أمضى ليلته تحت شرفتها، وأنه لم ينم حتى الآن

وفي آخر الحديث قال لها : ماذا فعلت بي بربك يا سارة؟

ابتسمت سارة حين قرأت ذلك، وبلا وعي رفعت عينها فرأته يضع يده خلف رأسه ويتأملها، فتلعثمت وتبخر وجهها خجلا. فأرسل :

ليتك ترين حسنك حين تخجلين

لعرفت حينها كيف يطير النوم من عيني حين في بالي تخطرين

وقفت سارة سريعا، جمعت كتبها بارتباك وهي تستشعر نظرات محمد لها، مما جعلها تتصرف كالبلهاء تجمعهم ويسقطون من يدها، تحاول جاهدة أن تفر من أمامه قبل أن يغشى عليها

وحين ابتعدت عنه أغمضت عينيها وقالت بصوت مهموس :

يا إلهي كم أحبه..

لكن طيف محمد كان يتأملها دون أن تدري، فأرسل لها وهو يقف من بعيد:

وأنا أيضا..

الحب في خاطرهما كان عظيما جدا، كلاهما كان يخشى أن يزل بالعشق فتذهب بركة الله التي تغمره

فالحب نعمة، ما أن دخل الحرام بها حتى تحولت لجحيم

مرضت سارة بالحمى، ومحمد كان مشغول البال جدا عليها، لا سبيل له ليصلها، فلا والدها يتفهمه، ولا تقدر هي على محادثته، ولا وجوده ليلا تحت غرفتها كان يجدي، فإنه لا يدري إن كانت ستذهب للجامعة في اليوم التالي أم لا..

مر يوم، واثنان وثلاثة ولم يتمكن من الوصول لخبر عنها، عاد لبيته منهكا هزيلا بعد طول أرق وقلق ودوام متعب في وقت الظهيرة

رمى بجسده على السرير محاولا النوم، لقد كان جسده ينتظر فرصة ليسأله عن حاجته فروحه كانت تتحكم به لحد كبير في الآونة الأخيرة، نام ولكن

روحه ظلت يقظة تبحث عن سارة، حلم بها في المنام جالسة على أدراج كبيرة، أسفل مظلة سوداء عظيمة، تمسك بيده، وتقول له: محمد لا تذرني وحدي إني أحتاج إليك..

نهض من فراشه فزعا

ضرب السرير وجلس على الأرض بجواره، يفكر بها

كان أذان العصر يؤذن، ذهب للجامع المجاور وصلى جماعة، ثم اقترب من الشيخ وقال له : السلام عليكم

فرد الشيخ مع ابتسامة : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

أهلا بك يا بني.. أهنالك شيء !

قال : أنا من بلد أخرى أتيت لأدرس هنا وأكمل رسالة الدكتوراة

لكني بحاجة لشخص أسأله بأمري، فهل أجد لديك سعة صدر، فإني لأشعر أنك رجل حكيم

جلس الشيخ بقرب أحد الأعمدة متربعا وقال له : هات ما عندك، ستجدني إن شاء الله من الناصحين

قال : يا عم، هل الحب حرام !

صمت الشيخ قليلا ثم قال : أكمل ؟

فرد محمد : لست ممن يزيغون البصر، ولا أتطلع لقرب النساء، أنهيت المراهقة وعمري للآن دون أن أرسل لفتاة وردة أو أغازل صبية، دون حتى أن أحادثهن بالعلم ولو مجرد كلام..

إني ممن يلقون السلام ويقللون الكلام، أحترم الكبير وأعين الصغير، أتحمل لأجل غيري، وأؤمن بأن الله لن يضيع لي أجرا على ما أقوم به..

لكني بالنهاية بشر..

أحببت فتاة، وأول ما خطر ببالي ذهبت لبيتها، لأخبر والدها برغبتي بها فسد الباب بوجهي وحال بيني وبينها

إنها لا تفعل شيئا سوى أن تمر في مخيلتي حتى تجعلني أموت شوقا وحبا لها وبها.. فأخبرني يا عم ما الحرام في ذلك !

لقد طال صيام قلبي، أما آن له أن يفطر ؟

ربت العم على كتفه ثم قال : ألست تؤمن أن الله مطلع على ما في القلوب ! وأنه يجازي كل ذي حق حقه..

لا تخف يا بني سينصرك الله ولو بعد حين

العظيم الذي لبى نداء يونس في بطن الحوت، ليس بعاجز أن يداوي هذا الصفير في أيسرك كلما اشتقت لها ضع يدك على أيسرك وردد اللّهُمَّ إنك تراني وتراها، وتعلم أنني من خلقك لا أرى سواها، فاختر لها خير من يحبها ويرعاها واجعلني أكن خيرهم وأنال قربها وقلبها

ولا تبلني فيما لا أملك من أمري واجعلني راضيا بحكمك مهما كان، وارض عنها وأرضها بما قسمت لنا

فإنك اللطيف الخبير العليم الرحمن الرحيم ذو العرش المجيد لا يخفى على سمعك خفي الأنين ولا يغرب عن بصرك حركات الجنين..

ألح على الله في طلبك، فإن الله يحب العبد اللحوح، ولا تحيد عن طريق الحق لتتبع هواك مهما كان، فما يزين الشيطان لك إلا باطلا..

نكس محمد رأسه والقهر والحيرة تملؤه

فقال الشيخ : والله لو جئتني طالبا ابنتي لزوجتك إياها بلا مقابل، إني لأراك خير الرجال وخير الطالبين

اذهب لعمك مرة واثنتين وألفا، سيستشعر صدقك فيم تقول، وأنا متأكد من أنك ستحظى بموافقته ذات يوم

ابتسم محمد وقال : شكرا لك حقا

لا تنسني من دعائك، أسعدني قولك جدا وأتمنى أن يستجيب الله لي، فإني بلا حول ولا قوة، هو وحده وكيلي في أمري...

وخرج محمد بلا وجهة محددة، ساقته قدماه لمصف الحافلات، وبلا تفكير صعد متوجها لمدينة سارة، فهو لا يعرف بالبلد سواها وجهة وقبلة لقلبه

وحين وصل المنطقة، وقف أمام الباب في حيرة من أمره، أيحادث عمه أم يكتفي بالجلوس أسفل نافذتها عله يرى طيفها فيطمئن..

وبعد طول تفكير صعد الدرج وطرق الباب ثلاثا

فتح له أخوها الصغير "أسامة " فسأله عن الوالد، فقال له تفضل دقيقة وسأناديه لك..

جاء والدها، وصدم لما رآه

دار بينهما حديث طويل، وكالعادة غلبه العم بحكمته

إلا أنه حين وقف على الباب مودعا قال : ياعم سأترك قلبي هنا وأرحل، وما من عاقل يتخلى عن قلبه بسهولة

عليك أن تفهم أن روحي معلقة بجدران هذا المكان وأن الأمر ليس بيدي..

مر الفصل الدراسي الأول وكلاهما يجاهدان من أجل إتمام الحكاية على سمو نهجها بلا أن يدخل الحرام بينهما، فكلما كاد أن يضعف طرف ذكره الآخر أنهما قد يتورطان بالحرام

ولم تتعدى محادثاتهم الاطمئنان على بعضهم البعض وبعض الاستفسارات من محمد حول النقل والمواصلات في البلد الجديد، ومكالمتين إحداهما كانت من محمد فقط وأخرى تحدثت بها سارة رغما عنها لتساند محمد في محنته إذ توفى أعز أصدقائه، ورغم ذلك فإنها لم تنطق بأكثر من بعض مصطلحات التعازي المتوارثة..

***

_12_

عاد محمد لبلده، وأخبر والديه بالأمر، اعترضا على الأمر وخصوصا والدته، فقد أرادت أن تزوجه لابنة أختها، وتفاقم الأمر حتى وصل الأمر لغضب الوالدة عليه إن لم يتراجع عن الفكرة..

لكن محمدا كان يسير بالأمر مسيرا بلا تخيير، فكانت جملته الأخيرة لأمه :

سألت الله أن يريك سعادة صغيرك في لحظة يلمح بها طرفه شق قلبه الثاني والله لإن لم تقبلي، لأمتثل لأمرك ما حييت، فأنت فوق قلبي وعقلي وكل شيء..

لكن بعدك غيرها لن تكون باسمي واحدة من النساء..

وهذا يمين أقطعه على نفسي إلى يوم الحساب

تعاطفت أخوات محمد معه، كما والده وإخوانه المتزوجين، وحاولوا جاهدين إقناعها بالأمر..

أما محمد فكان متأملا بالله خيرا، وكل ما يفكر به أن الله من زرع هذا الحب بقلبه، وأنه سيتمه بأي حال..

كان يصلي كل يوم داعيا الله أن تلين والدته بقرارها وأن ترضى بسارة زوجة له وأن تسافر معه ووالده وإخوانه لطلبها رسميا من عمه..

وحين انتهت العطلة توجب على محمد أن يعد حقائبه للسفر وكل ما كان يفكر به أن يذهب ليأخذ رضا والديه قبل المغادرة، فمن المستحيل أن

يتمكن من الذهاب وبقلبهما شيء منه.. طرق باب غرفة والداه

فردت أمه : ادخل..

كانت تعلم أن صغيرها سيأتي لها ليستسمحها قبل أن ينام، فهي الوحيدة التي لا يمكن أن تتوه عنه

دخل مبتسما ابتسامة زائفة، جلس عند قدميها وقبل يديها قائلا : والله لو نادتني الجنة ورأيت بعينيك حزنا لزهدت بها..

ثقي أن ابنك لن يأخذ نفسا إلا وقد باركت له به..

إني لأحيا على قيد رضاك

دخل والده الغرفة وقال : أووه حبيب أمه

نكس رأسه وابتسم، ثم قبل يد أمه وقال : لا حرمني الله منك يا ضي عيني

وقف وقبل يد والده ورأسه والحزن جلي بعينيه، فربت والده على كتفه وقال : غدا سننطلق معك بإذن الله

نظر محمد بتشكك بعيني والده، والفرحة تقفز من عينيه، ثم نظر لوالدته فابتسمت. تلكك محمد من فرحته ولم يدر كيف يتصرف، فضم والده بشدة وهو يضحك بأعلى صوته، ثم عاد لأمه وقبل رأسها وذهب مسرعا لغرفته وكأن قدميه لا تصل الأرض بل تطير..

أمسك هاتفه سريعا وأرسل لسارة :

وعدني الله أن يجيب دعوتي..

غدا سنصل أنا وعائلتي للمطار ونزوركم في بيتكم بإذن الله

لا تنامي الليلة يا سارة دعينا نقيمها شكرا لله سويا..

ليلين قلب والدك علينا، ويقبل بي زوجا لك على سنة الله ورسوله

اتصلت والدة محمد بأم سارة، وأخبرتها بنية قدومهم الليلة بعد صلاة المغرب، رحبت أم سارة بهم ولكنها طلبت منها أن تستشير زوجها بالأمر، ثم ترد لهم الخبر. كانت أم سارة تعلم عن حكاية الشاب الذي كان يتردد لبيتهم وكانت متعاطفة معه جدا، كما والدها..

أخبرت أم سارة زوجها بنية قدوم عائلة محمد، استغرب الأمر جدا، وسألها كيف سيأتون إلى هنا وهم في بلد أخرى، وبعد حوار طال بينهما، استسلم لزوجته وقبل أن يحضروا، بعد أن قالت له :

يا رجل، دعهم يأتون وبعد ذلك يخلق الله ما يريد، لقد طرق الشاب بابك بالحلال ولم يتعرض لابنتنا أبدا، وأنت بذاتك قلت عنه أنه شاب ذو خلق عظيم.. لا أدري ما المانع في قدومهم!

صمت..

فأتبعت :

دعنا نتصرف بطريقة عادية نستقبلهم ونرى مالديهم، ثم بعد يوم أو اثنين نأخذ قرارنا، لقد أحضر أهله من بلده إلى هنا..

أقل ما يمكننا فعله استقبالهم هذه الليلة..

اتصلت أم سارة بأم محمد وأخبرتها أنهم بانتظارهم..

ثم توجهت مسرعة لتنادي سارة وتخبرها بالخبر لتجهز نفسها، اعتادت سارة على سماع أخبار المتقدمين للزواج منها، واعتادت أيضا على سماع قصة رفضهم وتعليلات والدها، ولم يكن الأمر يعنيها على الإطلاق، لكن الخبر هذه المرة كان مختلفا..

ذهبت إليها ونادتها منذ أن وصلت باب غرفتها وظلت تنادي حتى وصلت سريرها وهزتها لتفيق من نومها، وكالعادة نومها ثقيل تحتاج صاروخا ليوقظها، كيف لا وقد كانت كثيرة الأحلام، تحلم كل يوم حلما بأحدهم ممن مروا على ذهنها وشغلوا حيزا من عقلها

استفاقت سارة، وصورة محمد مشوشة أمامها، قالت أمها: استعدي سريعا وتعالي لتجهزي معي الضيافة أهل الشاب الذي يتردد بيتنا منذ بداية العام على وصول.. وذهبت على عجل منادية على أختها الصغرى لتعينها

لكن سارة لم تستفق بسهولة، وأعادت رأسها على الوسادة في حال خروج والدتها، ثمة جزء بالمنام لم يكتمل بعد ومحمد بداخلها كان لا يزال يتحدث، بعد ليلة طويلة من القيام والدعاء أقاماها وكل واحد منهما في بلد مختلف، يدعوان ذات الدعاء ويبكيان ذات البكاء ويصليان لربهما ليختار لهما ما فيه خير لهما، وأن يجعل خيرا كل منهما في الآخر فلا يكونان سوى لبعضهما

البعض، غفت سارة كالعادة فوق سجادة الصلاة باتجاه القبلة بعد صلاة الفجر مباشرة، وبعد ذلك رأتها أختها الصغيرة فأيقظتها وغطتها بمكانها فوق سريرها، فجاءها محمد بالمنام، وبالرغم من أنها غالبا تشعر بالراحة حين تصلي وتحلم أحلاما تسر خاطرها إلا أن المنام كان كالغمام فوق صدرها يكبت روحها، ويثقل حركتها

حلمت بمحمد يضع رأسه في حجرها ويبكي بكاء شديد ممسكا بيد طفلة ويخبرها بأنه تزوج أخرى، وأنه يريدها هي

وبعد طول كلام أخبرها بأنه لا ينجب أطفالا، سائلا إياها : أتظلين على ذمة رجل خائن، لا ينجب !

استفاقت سارة ولم تتمكن من فهم شيء

صارت تفكر بالحلم بمنطقية، كيف يضع رأسه على قدمي ويبكي وهو خائن !

وكيف يخون ويسألني أن أظل على ذمته !

وكيف لا ينجب أطفالا وتلك الطفلة في يده !

ظلت تفكر مغمضة عينيها متأملة بأن يعود الحلم مجددا فتسأله أو تحاول فهم شيء، لكن عبثا.. جاءها صوت أختها كحافلة الإسعاف تنادي باسمها :سارة سارة سارة.. ثم نزعت عنها الغطاء وشدت يدها: هياااا تعالي

كانت سارة ثقيلة الروح من منامها، لكن خفة أختها سرعان ما انتقلت إليها. أخبرتها أختها بما حدث فنسيت الحلم تماما، مع تفاعلات أختها التي

كانت تتنصت على حديث والديها وتخبرها كيف استطاعت أمها من إقناعه، ثم دفعتها لتتوضأ وتصلي صلاة الظهر بينما تنسق هي ما سترتديه سارة حين يأتون. بدأت بفرد الملابس وما رأيك هذا، أم هذا !

لكن سارة كان في قلبها نبض غريب يشغلها عن كل من حولها، كانت تهفو لتسقط بين يدي الله شاكرة إليه واقعها وسائلة إياه خير رؤياها..

تركت سارة أختها مشغولة بملابسها وخرجت لتساعد أمها، فوجدت أمها قد أنهت كل شيء.. عادت لغرفتها وهي تضحك على أختها، إذ نسقت ألف قطعة على سريرها وسحبتها من يدها أمام السرير: هيا اختاري أيا من هذه القطع سترتدين نظرت إليها بعجب : مجنونة أنت، أليس كذلك ؟

أتظنيني ذاهبة لاحتفال، ما هذه الألوان

توجهت نحو خزانتها وقالت : سأرتدي هذا..

(جلباب شتوي أسود متداخل ببعض البياض)

فردت أختها : هاا!!

فتحت درجها وقالت : وهذا الشال؟

سحبت أختها الشال الأبيض من يدها وقالت:

امم

ستبدين رائعة كالملائكة..

سأكويها لك إذن..

_13_

مر الوقت سريعا ووصلت عائلة محمد

طرق والده الباب، فرحب العم بهم أشد ترحيب، واستقبل محمد بالأحضان كأنه أحد أولاده وأصدقائه

بعد دقائق دخلت الخالة أم سارة حاملة بيدها بعض الشاي والمكسرات

تبادل العم أبو سارة وأبو محمد أطراف الحديث، أما محمد فقد كان قلبه ينادي سارة يجرها ويستعجلها لتأتي إليه، وكم كان يخشى أن يكون العم قد قرر أن لا تخرج

كان حديث العم أبو سارة غاية بالروعة، إذ كان عالما بالفقه الإسلامي وكل حرف ينطق به يفتح في عقل المتلقي ألف سؤال وسؤال، مما جعل محمد ينسى حبه وما جاء من أجله، وقد وقع في عشق والدها أكثر وأكثر

طرق الباب، دخلت سارة على الغرفة في منتصف النقاش بين محمد وأبيها، ألقت السلام وجلست بهدوء على المقعد المتوسط بين جهة اليمين حيث تجلس عائلتها، واليسار حيث تجلس عائلة محمد..

شعر العم بتلعثم نبض محمد وتشتته حين دخلت لكنه لم يفسح له المجال ولو حتى لنظرة، ولشدة لعثمة محمد وعظمة الموقف في قلبه سقط لسانه ولم يرد عليها حتى السلام !

كانت سارة تمسك بقطعة مناديل بيدها، وحرفيا لم تسمع ولم تر شيئا مما حولها، كان قلبها يصعد للسماء السابعة ويعود كلما نطق محمد، وبالرغم من ذلك فلم تكن تحاول أن تفهم ما يقول، لقد كان الموقف زخما بالمشاعر حتى أنها صارت تشعر وكأن الروح قد اعتذرت وظل الجسد مجبرا محاولا أن يدرك ما يحدث..

كان الشك يساورها في كل لحظة تحاول فيها ترتيب مجريات الأحداث، كانت مشغولة جدا بالمنديل تصفطها وتفردها من جديد، ثم تعيد الكرة وهي تقول في عقلها : محمد و أبي أمامي في اللحظة ذاتها، يتحدثان، والجميع هنا موجود حقا والأمر يتعلق بي أنا.. ثم تفردها مجددا وتقول : أكيدة أني أحلم..

إلى أن قاطعها صوت والدها يقول حديثا نبويا ثم يتبع ب: يمكنكما الجلوس على الطاولة إن رغبتما بأن تتحدثا قليلا

سارة تنظر لأبيها بتركيز بالغ كي لا تشت الآن فالوقت غير مناسب ولا تريد أن تبدو كالبلهاء..

لكن ما لم تحسب له حساب أن يتحدث محمد قائلا: نعم بالطبع..

توجهت سارة ومحمد نحو الطاولة التي أمام العائلة ليتحدثان قليلا، على أربعة أمتار من مجلسهم، وواصلت العائلتان الحديث..

جلست سارة أولا، ثم تلاها محمد ببطء وهو ينظر إليها بطرف عينه وقلبه ملهوف كلهفة أب بمولوده الأول، ثم جلس لم تنظر إليه هي، وبالرغم من أنها

كانت أشد لهفة منه إليه، إلا أن خجلها كان يزاحم لهفتها ويحدث ارتجاجا في نبضات قلبها يجعلها تبدو وكأنها ورقة شجر معلقة تترنح بين الهواء وبين قطرات المطر من فوقها.

قال محمد بعد أن أخذ نفسا عظيما : و أخيرا!!!

ابتسم ونظر إليها، فوجدها تزم طرف فاهها وتتظاهر بترتيب الحجاب، أراد أن يزيح عنها خجلها ويسمع صوتها فقال : كيف حال سارة !

فنظرت إليه نظرة خاطفة وأعادت بصرها نحو اللا شيء وقالت : بخير..

حاول ألا يلفت انتباه من حوله عدل جلسته وقال بنبرة جدية :

سأحدثك عني، أنا أقيم في حبك، منذ أن زرتك بالحلم ذات ليلة، أنا أدرس بجامعتك، وأنام تحت شرفتك، وابتسم عند رؤيتك واسمي.. ابتسم وقال وهو يحدق بها : محمد سارة

كل الهواء في الغرفة ما كان يكفي لأنفاس سارة بلا أن ينطق فما بالكم بشكلها بعد أن قال محمد ما قال.

لم ترفع سارة نظرها نحوه، ولولا حرمة المكان كان محمد سيقبل عليها ليضمها، نور وجهها ملتهب وأهداب عينها ترتعش، ويديها تتحرك ببطء وعبثية بين حافة حجابها على صدرها وبين ترتيب مقدمته.

قال محمدا مقاطعا خجلها : لقد بان شعرك..

حملقت إليه سريعا، وقالت : أين ؟

لكنه لم ينطق وظل ينظر لعينيها السوداوين إلا قليلا كحبتي البن المحروقتين وكأن بعض السواد ذاب كحلا في عينيها..

لم تتمكن سارة من الهرب، فحدقتاه كانتا متسعتين تماما، وكأنهما معبر الأحلام والرؤى لقلبها

بعد دقائق قاطعتهم والدة سارة بوضع بعض الحلوى المخبوزة.

فنظر محمد للطبق بنهم وقال : الجو بارد جدا، ونظر لسارة بطرف عينه ثم نظر للخالة وقال : سلمت يداك

أخذ أول قطعة بسكويت وقضمها ثم قال : سارة حدثيني عنك قليلا.. هل تحبين تخصصك الجامعي، وكم هو معدلك !

نظرت إليه وبقايا خجل على وجهها سرعان ما ذابت وقالت : تخصصي جميل، لكني أسعى للتطور فيه أكثر الدراسة كلها نظرية، أحتاج لتطبيق عملي لأتعلم اللغات بكفاءة أكثر..

معدلي ثلاثة وربع من أصل أربعة وتقديري جيد جدا.. لست متفوقة لكني من أفضل الطلبة في تخصصي.

فقال، وقلبه يقفز فرحا إذ يسمع صوتها الآن : وهل تفكرين بالسفر للخارج ! لاكتساب اللغات

فابتسمت وهي تومئ بيدها وأكتافها بقلة الحيلة : إن تمكنت، سأفعل بالتأكيد..

قال : وما هي أحلامك.

اتكأت بيديها على الطاولة ثم ضمتهما على بعضهما البعض وقالت : لا نهاية لها.. إني أحلم كل يوم حلما جديدا

فضحك محمد وقال : كل يوم حلم جديد، بذات الشخص، أم أيضا بشخص جديد !

فنظرت إليه بدهشة وخجل، ارتبكت وقالت : أأقصد طموحاتي..

قال العم أبو سارة : هل أنهيتما حديثكما !

عادت سارة لتعديل الحجاب بخجل، بينما محمد قال : والله لا يمل يا عم..

فضحكت العائلة ثم قال العم : تعال سأستشيرك بأمر له علاقة بتخصصك..

فرد محمد والابتسامة على وجهه : لحظة فقط

نظر لسارة وقال بتهكم : لو أنهم يختفون..

ضحكت سارة، فقال : علي الذهاب، كوني بخير و لا تكلي من الدعاء، استودعتك الله حلما بخاطري لا حياة لي دونه

فنظرت إليه وقالت : رافقتك السلامة

وقف وقال هامسا: لا سلامة دونك

وحياها مودعا، فوقفت سارة وحملت الضيافة متوجهة للمطبخ، هاربة من الجميع، ولا تملك أدنى رغبة بمحادثة أحد كي لا تشوش صورته في بالها، ولا يشارك عقلها صوت أحد غير صوته..

دخلت غرفتها وأختها تركض خلفها لتطمئن، فظلت هادئة، وقالت : قلبي بالكاد يتوقف، ضحكت أختها عليها وقالت: الله الله.. كيف يبدو شكله ! هل هو وسيم ؟

قالت سارة : أحضري لي كوب ماء بربك

ذهبت أختها فأغلقت الباب خلفا

وسجدت لله والدموع على السجادة تتساقط بأشد من غزارة الهطل في الخارج..

طرقت أختها الباب فسلمت ومسحت دموعها، ثم فتحته وظلت هاربة من عيونها كي لا تكشف أمر قلبها..

خرج محمد وعائلته والأمور كلها تسير على ما يرام، تغير رأي والدته، فأصبحت راغبة بنسبهم أكثر من محمد ذاته، وبينما الجميع يتحدثون في السيارة عن العائلة وعن العم أبو سارة وعلمه وكم سيكونون سعيدين لو قبلوا بهم، كان محمد يلتزم الصمت وينظر من النافذة نحو الطريق بشرود تام، حاولوا مناداته : هييي، أللووو، محممد

لكنه كان وكأنه في عالم آخر حتى ضربته أخته على يده قائلة : هنيئا لمن سرق عقلك..

وضحكوا كلهم عليه وهو معهم، لكن الابتسامة سرعان ما تلاشت عن وجهه وعاد للشرود..

وحين وصل الفندق استحم، وارتدى بيجامته الشتوية ثم كتب لها :

لقد كنت أظن الوجوه التي ترسمها نجوم السماء، مجرد كذبة وأفلاما كرتونية، وحين كان يقول أحدهم إني أراها في كل مكان حولي كنت أظن الأمر مجرد دراما تلفزيونية ومبالغة، لكني أقسم بمن ساقني إليك مسيرا غير مخير، ومن جمعني بك في الحلم أول مرة ويسر لنا اليوم بالحلال لقاء مباركا، أني مذ فارقتك وكل الأصداء داخلي تهفت بما كنت تهمسين، وكل الأشياء حولي تتشكل لرسم ملامح وجهك، بنت خدك التي تكاد تظهر، وأهدابك الرقيقة وعينيك، وألف آه منهما، وحدهما تحتاجان مني قوة عظيمة لألملم نفسي حين أتخيلهما.. لقد اجتثثت يا سارة قلب محمد من قلبه..

ولا رغبة له بصدره، لقد اختارك أنت ليقطن داخلك حتى يرده جسدك لجسدي بضمة يباركها الله لنا كما بارك حبنا

والله حين تركتني وهربت مني للداخل

كنت سألحقك بلا وعي..

وأنت جالسة أمامي كنت أدعو الله أن يثبت علي عقلي وديني كي لا أمد يدي ليدك أو أضمك

إني ولأول مرة في حياتي أشهد أني كفيف عن الدنيا لا أبصر شيئا مما حولي حبا بك، فردي قميصك علي إذا شممت ريحك أفيق مما أنا فيه..

***

_14_

قرأت سارة الرسالة، وجسدها يرتعش، لم تكن كلماته مجرد كلمات حب وغزل تخجلها، لقد كانت صادقة بما يكفي لاستحضارها قلبه داخلها فترتجف للشعورين، شعورها وشعوره في الآن ذاته..

عجزت عن النطق لكنها خشيت أن يفتك به برودها في لحظة كهذه فكتبت: قد أجيد الرد على أي شيء، إلا على قول منك، عني أنا بك

صدقك يجعلك ماثلا أمامي وأنت تقول قولك..

رد عليها : لا تردي علي قولا، بل قميصا

أيمكنني أن آخذ منك قميصا لك، اعتبريه دينا حتى ترتدينه يوما وأنت بجواري بإذن الله..

فكتبت بتعجب : أتتحدث حقا !

أجاب : رجاء..

صمتت لدقائق

فكتب : سارة

ردت : نعم

قال: أحبك

صمتت سارة وعقدة قلبها جعلتها تبكي، أرادت أن ترد عليه بمثلها، لكنها تعرف حجم الكارثة التي تنتظره إن قالتها له

فالتزمت الصمت وانطفأت الشارة الخضراء واختفت

قال محمد "أحبك " حين عجز أن يقول لها أي شيء، رغم بلادة الحروف ورتابتهم وقدمهم، الا أنها كلمة تزن أطنانا في اللفظة الأولى تحديدا، وبعد لقائهما الذي كان..

ظلت سارة تتقلب بالفراش طوال الليل، وتدعو الله أن لا يخذل قلبيهما، وبالتحديد محمد لما شهدت بقلبه من خشية لله وطهر وصدق..

وتفكر فيما سيحدث بعد ذلك، فوالدها كبير العائلة وقد أوقف ألف زواج كان سيتم من أشخاص يحملون جنسيات أخرى غير جنسيتهم، لأسباب معقولة، إذ ندم كل من أصر على رأيه وقبلوا بتغريب النسب لأي سبب كان، فقد كانت نظرته للأمر ليست من باب العنصرية، إنما من باب عدم القدرة على التعايش، سيكون الأمر صعبا جدا على اثنين لا يعرفان شيئا عما لدى الآخر من عادات وتقاليد، فالبيئة تحكم كل شيء، حتى النظرة للأمور وتقييم الأخطاء والعيوب، وغير ذلك من طريقة طعام وأهواء وأخلاق..

لقد كان والدها يعترض على أصحاب الجنسية المختلفة من ذات البلد الذي يقطنون به فكيف على شخص غريب، ببلد غريب أيضا..

كانت سارة تحاول التأمل والدعاء، لكنها كانت شبه متأكدة من أن الأمر لن يكتمل، إلا بتحول محمد لجنسيتها، والإقامة في بلدها، والأمران يحتاجان معجزة لحدوثهما..

_15_

استيقظ محمد في اليوم التالي، عاقدا حاجبيه مشغول البال، وكل دقيقة يسأل أمه "هل اتصلوا!، هل ردوا عليكم !"، فتجيبه أمه ب "لا" مصحوبة ببهدلة طويلة لعجلته، إذ أن الأمر الطبيعي أن يستغرق الرد من يوم ليومين، وبالرغم من ذلك فقد كان محمد يقول لها : لتتصلوا أنتم، قد يكونون أضاعوا رقمنا أو شيئا كهذا..

أما عن سارة فإنها لم تستيقظ لأنها لم تنم أصلا، لكن أختها أخبرتها أن والديها كانا يتحدثان بالأمر صباحا وهي خارجة للمدرسة، وأن والدها أحب محمدا جدا، لكن الأمر مستحيل كما يعلم الجميع..

زادت انتكاسة سارة وعمق الوجع في قلبها..

وكأن محمدا قد صدق حين قال إن قلبه اختار صدرها ليقطن فيه

لم تكن آبهة بمشاعرها وحبها أبدا، لكنها كانت لا تكل من الدعاء ليتلطف الله بقلب محمد إن كان لها أو لم يكن..

توفي زوج أخت محمد مما اضطر العائلة كلها لبلادهم، دون محمد الذي ظل لأجل الدراسة وبسبب صعوبة عودته

مر يوم واثنان، وعلى ما يبدو أن أهل سارة قد نسوا أمره تماما

أو أنهم قد أخبروا العائلة ولم يتذكره أحد..

ظل حتى المساء منتظرا، ثم اتصل العم أبو سارة على محمد بنفسه و قال :

السلام عليكم، كيف حالك بني ؟

فرد ملهوفا : أهلا أهلا عمي

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

بخير والحمد لله، كيف حالكم أنتم، أتمنى أن تكونوا بخير

فقال أبو سارة مختصرا الحديث :

بخير بخير والحمد لله

اتصلت زوجتي بأمك وأخبرتها بمصابكم، إنا لله وإنا إليه لراجعون، عظم الله أجركم

رد محمد بحزن : نعم نعم شكر الله سعيكم، رحمه الله

فقال : أيمكنك الحضور لدينا مساء اليوم

فأسرع محمد قائلا : سأكون بعد المغرب بإذن الله على بابكم

فقال العم مودعا :

بإذن الله.. بانتظارك

مع السلامة

فرد محمد : وعليكم السلام، بأمان الله

جاء المساء، وبينما كان محمد يستعد للذهاب إلى بيت سارة، اتصل عليه أخوه وأخبره أن العم أخبرهم برفضه منذ يومين، ولكنهم لم يتمكنوا من إخباره..

تعجب محمد من ذلك وعاتبهم بالرغم من تقديره للوضع، لكنه كان فاقدا للوعي عن كل شيء سواها.

وحين أقفل السماعة بدأت التشنجات والاضطرابات تصيب عقله، كانت أفكاره متطرفة، تتجاذب وتتنافر بين الاحتمال والآخر، كل ما كان يفكر به، أن يجد إجابة حقيقية "لمَ طلب مني عمي المجيء إن كان رافضا ! "

لم تكن الأجواء مستقرة في البلد، حيث أنه كان كان يوما ماطرا بالمدينة وعاصفا على أدراج بيتهم فقط

استغرق طريقه ساعتين نصف ساعة كانت مشيا على الأقدام تحت المطر مما جعله يترنخ بالماء، وحين وصل أدراج عمارة سارة اختلف الجو تماما وكأن البلاد كلها بمناخ وبيتهم بمناخ آخر، كاد أن يطير محمد لشدة قوة دفع الرياح له، وكلما صعد درجة يشعر وكأنه سيسقط، وحين وصل باب بيتهم كان متشبثا بالسياج خوفا من أن تدفعه الرياح ويسقط، طرق الباب ثلاثا ولم يجبه أحد، كرر طرق الباب بقوة أكبر لكن عبثا، ظن لوهلة أن ما من أحد في الداخل وأنه قطع كل هذه المسافة بلا فائدة.

أخرج جواله ليتصل بالعم أبو سارة فإذا بأسامة أخيها الصغير يخرج من باب بيتهم مرتديا معطفا كبيرا من الجلد يغطي به رأسه، صدم لما رآه فأدخله سريعا وأعتذر منه على عدم سماعه بسب ضجة الهواء، ثم نادى والده وانطلق مجددا لوجهته..

جاء العم أبو سارة، ودخل مرحبا به : أهلا أهلا بمحمد

المطر غزير جدا في الخارج، لم يكن هكذا حين اتصلت بك، كان بإمكانك أن تعتذر هداك الله

ضحك محمد وقال : والله يا عم كل البلاد تمطر، إلا بقمة إيفريست خاصتك، وكأنني وصلت الأقطاب ما هذا يا عم..

ضحك أبو سارة وقال له : لأننا على حافة الواد، حتى الأمطار لدينا تأتينا من الأسفل..

ثم قال له : هات معطفك، سأجعلهم يجففونه لك

فقال : لا بأس، لابأس

فرد العم منهيا النقاش : خذ ما فيه لك وهاته

فأخرج محمد كل ما في جيبه وأعطاه المعطف

ثم أحضر العم المدفأة وقربها من محمد ولحقه أسامة بالشاي الساخن

كان محمد ينتظر ما سيقوله عمه بفارغ الصبر

جلس العم بعد أن ضيفه وقال له : اسمع يا بني، لقد جئتني طالبا لابنتي بالحلال، وكررت طلبك أكثر من مرة، ثم سفرت أهلك إلى هنا لتثبت جديتك بالأمر، ويشهد الله أني عرفت أنك صادق منذ المرة الأولى، ولم أجد فيك أمرا يشينك، لذلك أحضرتك بعد رفضي لك، لأخبرك بحقيقة سبب

رفضي، وإني والله لأتمنى أن تكون طالبا إحدى بنات إخوتي لأعطيك من طلبت، لكني بحق نفسي ضعيف..

كنت أتدخل في كل عرض زواج يتقدم لهن بالحكمة، والرفض كان على أسس عميقة تختصر باختلاف الجنسية، لكني شهدت بك أمرا مختلفا..

لذلك أردت أن لا أنهي الأمر على يدي، سأجمعك بأعمامها السبعة وإخوتها الكبار، فإن يسر الله لقاءكم، فستكون ابنتي لك بإذن الله، وإن لم يكن، فهذا حكم النصيب ومشيئة الله.

تنهد محمد وقال : يا عم، والله لم أفكر يوما أني قد أسعى في طلب زوجة لي، لقد كنت مسلما أمري لأمي وإخوتي، لكن الله دب في فؤادي عشقها بلا أدنى رغبة مني..

لست مراهقا، ولم أفتن بجمالها، قد التفت قلبي لها قبل بصري، اضطرب قلبي ثم رأيتها، ليس من العدل أن ترفضني لجنسيتي..

اسمعني يا عم..

قل إنك ترفضني لجهلي، لقلة أدبي، لذوقي، لديني..

قل أنك ترفضني لشكلي، أو حتى بلا سبب فقط لأنك لا تشعر بالراحة حين تحادثني

حينها سأصمت وأعاتب نفسي على ما أنا فيه، وسأحاول تغيير نفسي

لكن لا تقل بربك أنك ترفضني لمكان ولادة والدي، ولربما جدي أيضا..

أنا على استعداد أن أقيم هنا، بجواركم، وسأبحث عن عمل بالمنطقة، بعد أن أتم هذا العام، جاهز لأي طلب تطلبونه، لكن لا تحاكمني بما لا يد لي به يا عم.. طال النقاش بينهما، واتفقا أن يحضر غدا مساء في بيت العائلة ليلتقي بأعمامها مؤكدا أن الاعتراض ليس من جهته وأنه يقدر له أخلاقه ومخافة ربه في حب ابنته، ومذكرا إياه أن النصيب وما أراد الله ماض على أية حال.. فمشيئة الله فوق كل شيء

***

_16_

أخذ محمد معطفه بعد أن جففوه له، ليعود للبيت، كان الجو مخيفا جدا، ودعه عمه قائلا : رافقتك السلامة

خرج محمد يجابه الريح، والأفكار بقلبه تعصف أكثر وأكثر

حب سارة يتخلله بكل ما فيه، ويمنعه عن الشعور بأي شيء، لقد كان شعوره كله يعصف بداخله معلنا ألا فرار منها سوى إليها

وصل محمد آخر الدرج فإذا بصوت إشعار مكالمة على تطبيق "الماسنجر"

فتح هاتفه مخبئا إياه تحت بطانة معطفه فإذا بها مكالمة من سارة، رد سريعا ووصل سماعته كان مستغربا جدا من اتصالها

قال : ألو..

فردت : محمد..

فقال محاولا التقاط كامل ترددات صوتها كي لا يفر منه حرف :

هاا عزيزتي أسمعك

قالت : لا تعد للسكن الآن، انتظر حتى الصباح

ابتسم وقال : وأين سأظل ! ترين الجو !

قالت : أدخل من باب الكراج على يمينك ستجد بابا مفتوحا، انزل الدرج كاملا ستجد ثلاث شقق فارغة، نم بالشقة الوسطى، وأنا سأحضر لك الفراش بعد قليل

ابتسم محمد بامتنان ثم قال : لا بأس عزيزتي سأعود للسكن لا تقلقي علي..

فردت باقتضاب : لست قلقة عليك، لكنك لن ترجع للسكن الآن، الجو مخيف والوضع يزداد سوءا..

قال : أتخافين علي!

سكتت

فرد : شكرا لك سارة، سأفعل كما أمرت

فقالت : سأحضر الأشياء لك حالما يتجمعون على الغداء

مع السلامة

ذهب محمد، ونفذ ما قالته سارة، لم يكن ليقبل لولا أن الجو أجن منه، وكذلك لم تكن سارة لتطلب منه ذلك لولا أن الوضع كان مخيفا أكثر من اللازم..

انتظرت سارة حتى اجتمعت العائلة على سفرة الطعام، كانت قد جهزت الفراش بغرفتها، لما بدؤوا قالت وهي ترتدي لباس الصلاة : سأصلي وأعود

حملت سارة الفراش ونزلت سريعا، طرقت الباب بصوت خافت فرد محمد:

- هنا.

دخلت وظلت واقفة على باب الغرفة التي يجلس بها محمد لمحته فوضعت الفراش جانبا وقالت له : تفضل

فرد : شكرا شكرا

نظرت إليه نظرة المستعد للهروب وقالت على عجل : سأحضر لك الطعام، ابتعد عن النافذة، نم على هذه الجهة..

وأنهت حديثها ب : السلام عليكم

لم يحاول محمد أن يحادثها وظل ينظر نحو الفراش بلا أن يناظرها، لقد كانت عيناه ترتجف بعد أن لمحها في حجاب الصلاة حين دخلت.. أما عن صوته فقد كان أشبه بالهمس، صوتا لا يتعدى محيط أذنيه..

صعدت سارة، تناولت الغداء مع العائلة وهي لا تسمع أي شيء مما يقال حولها، لقد كانت خائفة جدا من أن يكشف أحدهم أمر محمد، وبالوقت ذاته لم تكن لتدعه يعود كل هذا الطريق في خضم جو عاصف كهذا..

ظل خاطر سارة مشغولا بطعام محمد، كيف ستتمكن من إيصال الطعام له.

بعد ساعتين خلد والدها للنوم وهو يشاهد التلفاز، بينما والدتها كانت تشرب القهوة مع أخويها وأختها في غرفة الضيوف، نظفت سارة المطبخ وتناولت عبوة بغطاء ملأتها بالطعام وأمسكت برسالة كانت تريد إعطاءها لمحمد إن سمح لها الوضع بذلك ثم تسللت سريعا وهي تمتم في عقلها " وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون " حيث أن هذه الآية تقوم بعمل التعويذة السحرية، فلم يسبق أن قرأتها سارة بأمر إلا ومر بسلام..

طرقت الباب ثلاثا فلم يرد أحد، كان الظلام حالكا، أضاءت بهاتفها، فوجدت

محمدا نائما بالفراش الذي أحضرته وقد خلع معطفه جانبا

لم تتمكن من البقاء لكنها ابتسمت لما رأته مطمئنا ونائما بسكينة في بيتها، وضعت الطعام جانبا، وأمسكت بمعطف محمد، وضعت به الرسالة، وحين أصبحت على باب الغرفة

ناداها بهرع محمد : سارة !

التفتت سارة نحوه وقالت مطمئنة إياه :

سارة سارة..

اهدأ محمد لقد أحضرت لك الطعام، أتريد شيئا

رفع عنه الغطاء ونهرها قائلا : كيف تنزلين إلى هنا بمثل هذا الوقت، وقد حل الظلام..

تلكأت وقالت : ل..لكني، أرردت.. أن.. أحضر لك الطعام..

فأتبع بذات النبرة : هيا اصعدي، حتى لو مت هنا لا تنزلي مرة ثانية

لم تنطق سارة، لقد كان قلبها منقبضا، فأفزعها بصوته حين ناداها، وزاد العيار بنهره لها.. أدارت وجهها لتصعد بسرعة..

فشعر أنه قد قسى عليها فقال : سارة، خوفا عليك والله

كادت أن تبكي فقالت : آسفة

ثم صعدت على الدرج، شبك محمد يديه خلف رأسه ثم شد عليه

وناداها : سارة

نظرت إليه وقالت : ماذا تريد، علي أن أصعد..

فقال : أأيمكنك أن تشحني لي هاتفي

فقالت : أعطني إياه

سحبه من جيبه ومده لها فأخذته

صعدت سريعا، ثم تراجعت ونظرت نحوه وقالت : لكن.. كيف سأعيده لك !

قال : لا تعيديه..

سآخذه منك غدا..

فقالت : حسنا، مع السلامة

فقال وهو يمشط شعر رأسه بأصابعه: ألا تريدين رمز القفل !

فضحكت وقالت : لا

أكملت سيرها فقال : اسمك..

وصلت سارة لأعلى الدرج أخفت الهاتف بجيبها وخلعت حجابها، كي تتظاهر أنها كانت تحضر شيئا عن السطح لو رآها أحد، وهي تقرأ تعويذة الإخفاء من سورة "يس"

وكالعادة نجحت التعويذة بإبعادها عن الأبصار، دخلت غرفتها سريعا وأخفت هاتف محمد أسفل وسادتها..

ثم خرجت تتمشى بالبيت لتطمئن من أن لا أحدا لاحظ غيابها..

دخلت غرفة الضيوف فرأتهم غارقون بالضحك، وناداها أخوها الذي يكبرها بعامين قائلا : سارة سارة، أخبريهم كيف كنا نخيف المارة في شهر رمضان..

فضحكت سارة وانخرطت معهم بالحديث فبدأت بتمثيل المشهد لهم قائلة : كنا نقف أنا وعلي على هذه النافذة ونرتدي الأقنعة المخيفة التي يحضرها والدي، ونطفئ الأضواء كلها، ثم نمسك بضوء " القداحة" الأزرق ونضيئه على وجهنا ونصدر أصوات مخيفة، وحين يذهب الأطفال باكين لأهلهم نختبئ ونتظاهر بالنوم، كي لا يعرف أحد منكم أنا الفاعلون..

فقالت أمها : مجانيين، وأين كنا نحن عنكم !

فقال علي : كنتم تضربونا لننام باكرا، فنتظاهر بالنوم ثم نتسلل للغرفة

وعادوا للحديث فتسحبت سارة من مكانها وغادرت الغرفة، متوجهة لغرفتها وأغلقت على نفسها الباب

وضعت هاتف محمد على الشاحن، ثم أمسكته بكلتا يديها وهي تفكر :

أأفتحه !

لا لا عيب.. لن أفعل

امم فقط أريد التأكد من أن اسمي رمز قفله أم لا

لا لا، هذه أمانة.. لن أفعل ذلك

تركته على مضض وجلست على طاولة مرآتها، وبدأت تلعب بشعرها كالعادة وتمشطه بيديها، تقلبه من مكان لآخر، وتقلب الأفكار بعقلها :

لا بد أن يجدها، سيشعر بالبرد حتما ويرتديها

لكن..

ماذا لو لم يفعل؟

ماذا لو لم يجد ضوءا ليقرأها، وتركها بجيبه غير آبه بمحتواها

المشكلة أن هاتفه معي لن أتمكن من أن أتواصل معه أبدا

***

_17_

يا الله

أطفأت ضوء الغرفة ثم وقفت فوق سريرها ونظرت من النافذة للأسفل، لقد دلته على الغرفة التي تقع أسفلها على بعد طابقين، لكن المطر كان غزيرا جدا والرياح قوية لن تتمكن سارة من سماع شيء ولن يتمكن محمد من إظهار أي اشارة لها بأنه قد قرأها..

فتحت الستائر كاملة وأغلقت النافذة، ثم رمت بثقل جسدها على السرير ورأسها متدل منه مسرحة شعرها الطويل على سجاددة الغرفة..

أغمضت عينيها بتركيز، وظلت تفكر به بعممق..

لما غادرت سارة، بدأ محمد يعاتب نفسه على غبائه ويتحدث مع نفسه بصوت شبه مسموع :

سأظل غبيا هكذا، لا يمكنني أن أتصرف بلباقة مع الإناث..

لا بل الحق عليها من قال لها أن تأتني ليلا،

ثم أخفض صوته أكثر :

لست جائعا... ولنفترض أني كنت، من قال لها أني أخاف الله..

غضب للأفكار التي ساورته، فقاطع نفسه قائلا لكني حقيقة جائع.. وجدا فتح العبوة وأكلها كاملة ثم قال : الآن عرفت لما أحببتها وضحك

وقف بالقرب من النافذة يتأمل المطر، فتح النافذة سريعا، فأصدرت صوتا، خشي أن ينتبه له أحد، فبدأ يسحبها ببطء

انتبهت سارة لصوت، وتهيأ لها محمد يقف بالقرب من النافذة، فقفزت مجددا لتراه.

بالرغم من أنه لم يظهر شيء منه، ولم يصدر أي صوت إلا أنها شمت رائحته، ليست رائحة عادية، ليست عطرا ولا رائحة طبيعية تشتم ثم يغرم بها القلب بل كانت عى هيئة تدفق نبضات مرتبكة وترقص عشقا في قلبها، جعلتها تشم رائحته بطريقة عجيبة في كل شيء.

كانا في اللحظة ذاتها، يشغلان ذات المحيط، لا يفرق بينهما سوى جدارين علويين وجنسية ونصيب.

أما محمد فقد اشتم رائحتها حقيقة لا وهما، حين قرر أن يرتدي معطفه خشية أن يمرض ولديه غدا لقاء مصيري

شعر محمد بأن المعطف كان طيف سارة، لقد كان شعورا غريبا جدا، حاول تلاشيه لكن جسده اقشعر بأكمله حين أغلق المعطف واقترب من النافذة حتى أنه شعر بشيء يمنعه من الاقتراب كثيرا، أراد أن يخرج هاتفه الآخر من جيبه، فوجد ورقة مطوية، أخرجها وفتحها، لكن الإضاءة معتمة جدا، خشي أن ينير الغرفة ليقرأ، فأضاء هاتفه على الرسالة وأخذ يقرأ :

سلام عليك.. كيف حالك محمد ؟

أتمنى أن تكون بخير، لست أجيد كتابة الرسائل، لكني سعيدة جدا ببقائك الليلة هنا، تحديدا أسفل غرفتي لتكون بأقرب نقطة ممكنه لأشعر بك، أريد أن أكتب لك، لكني لا أتمكن من توثيق الشعور كما تفعل بالغالب، وأخبرك بما يحدث معي في وسط العاصفة التي تتحملها وحدك لأجلي، أما أنا فإني لا أكل عن دعاء الله بأن يختار لنا الأفضل، بأي طريق كان.. لن أتمكن من إخبارهم برغبتي بك زوجا لي.. بأي حالة آل إليها الأمر بنهاية المطاف، لكني أريد أن أقول لك ما بقلبي، وأريد أن يصلك شعوري الآن، كي لا تشعر أني في لحظة ما، ولقول ما لا أرغب بك، لن أقول أني كنت مغرمة بك منذ البداية، لكن الله يسوق أحيانا أقدارنا إلينا بلا أن يكون لنا أي علم بها، وقد كنت قدرا ساقه الله إلى قلبي كفيفا، دون أن أعرف أي شيء عنك، فأتى بك بنورك وكشفت عني السواد فأبصرتك ببصر وبصيرة لا تخطئ، ورهنت شيئين مني باسمك قلب لم يطرقه قبلك أحد، وعقل لم يتقبل حتى التفكير لوهلة بأحد، لقد ملكت الروح الآن، فإن أتم الله ما بيننا ملكت الجسد، زولا أظن الروح ستطيق فراقك، فإن لم تكن أنت سأبقى عذراء للأبد، لطالما استغبيت كل فتاة تعشق، وكل فتاة تظهر شيئا مما في داخلها، لكني لست أخجل من أن أقولها لك، بعد أن شاركتك ألف حلم في الوعي واللاوعي، وجلسة وثقت كل ما بخاطري بالحلال، وكم سيكون أسفي، لو

رفضت بسبب أمر لا ذنب لك به، وإني لأشهد أنك وحدك من يستحق أن يسرق مني قلبي وعقلي، وأن يأخذ نومي ويستبدله بالأرق..

سلامي لك يا محمد..

وأعتذر على كل ما حدث وما يحدث معك وبك من أجلي..

وبالمناسبة أنا من جففت معطفك، وأعتذر لأني بقيت مرتدية إياه حتى طلبه والدي.

سارة

تنهد محمد، طيف سارة ثقيييييييييل جدا

لقد عانقته بحديثها، عانقت روحها قلبه، وأتعبت أعصابه كلها حتى شلت تماما. جلس محمد على الأرض مستسلما مرتكزا على جدار قد وصله ظل القمر، وقال : يااااااارب .. سارة يارب..

ثم بكى، وبكى وبكى بلا صوت ولا حتى أنين، تذكر كل همه وكل من فارقوه بحياته متظاهرا بأنه لم يأبه بأحد، تذكر كل وجع وأنة صدر سكنت صدره ذات يوم..

ثم وقف على النافذة و الدموع قد شقت طريقها بصدره، وأحدثت شرخا عظيما.. نادى الله في سره :

يارب، ماكان لي يوما بين العاشقين سبيل، ولا كان الهوى يمر بخاطري، لقد كانت أسير بجانب الحائط خشية أن أفتن بإحداهن فأعيش ما يعيشه الجميع

من حولي من وجع وألم وقهر، لقد كنت أحبس أنفاسي إذا مررت بعطر فتاة، ولم تمس يدي فتاة قط الا من حرمت علي، وأنت الشاهد على ما أقول..

لكن لماذا جعلتها بقلبي جمرة، إن لم تكن لي، لماذا أحضرتني من بلدي منساقا بلا أدنى تدبير مني لأرضها، ومن ثم للقائها، وهديتني لسبيل الرشاد فطلبت يدها، ولم أعصك لحظة ولا بمخيلتي في حبها..

لماذا يرغمني القدر بعشقها إن كانت لن تكون لي !

سجد مطمئنا و قال وهو مغمض العينين :

شكرا لك رباه، إن كنت قد اخترت قلبي لتمتحنني به، فإني لا أسخط على حكمك وستجدني إن شاء الله من الصابرين، لقد كفيتني شر نفسي وهديتني لحمدك واستغفارك، سبحانك لا ملجأ لقلوبنا إلا إليك، وحدك تعلم بسرائر قلوبنا وتسيرنا كيفما تشاء، اللّٰهُمَّ إني أستغفرك وأتوب إليك سبحانك ربي إن كنت من الظالمين..

هدأ صوت قلبه لحظيا ثم عادت العواصف تعزف بداخله إذ يتصور أن ينتهي الأمر بعد ساعات، لا لعيب به، بل لجنسية جده التي حتى لم يكن لجده ذنب بها، ثم عادت عينه تعتصر دمعا وقلبه وجعا وظل يردد : ربي لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه..

***

_18_

خرج من مبنى بيت سارة، كانت الساعة الثانية عشر تقريبا، متوجها نحو كشك القهوة ليبتاع شيئا ساخنا..

كان يحتاج للسير تحت المطر، للركض للتنفيس عما بداخله، اشترى كوبا من الشاي، وعاد للمكان الذي بدأ يشعر أنه جزء منه، جلس تحت المطر، مقابل شرفة سارة كالعادة، سامحا للمطر أن يبلله عله يصل لقلبه فيبرد..

فتح هاتفه، واتصل على رقمه، دون تفكير..

لكن الهاتف كان مغلقا..

عبث بالهاتف قليلا، حتى أنهى كوب الشاي ثم بدأ بالسير واضعا يديه بجيبي بنطاله، رافعا رأسه نسبيا للسماء، والمطر قد هدأ..

ثم بدأ يدندن بصوته مقطع من أغنية :

سامحني أنا فعلا مش هقدر..

أكون قدامك ومحبكش..

أنا دلوقتي بحبك أكتر ياريتني أصلا ماعرفتكش

أنا تعبان موجوع من بعدك، أنا صعبان على نفسي بجد

هو انا ينفع أعيش من بعدك ؟

هو في أصلا بعدك حد !!

وضع يديه علي رقبته وشد رأسه للأعلى ثم أرخى نفسه ونظر للسحاب وكرر :

أنا دلوقت بحبك أكتر.. هو في أصلا بعدك حد.. وتنهد

قاطع تفكيره إشعار رسالة من هاتفه المغلق، علم حينها أن سارة مازالت مستيقظة لهذا الوقت..

شد على الهاتف ونظر نحو شرفتها حائرا، كمم فمه بيده لبرهة ثم اتصل..

رن الهاتف:

الرنة الأولى.. الثانية.. ثم أوقف الاتصال

فتحت سارة النافذة بعد لحظات، وأطلت منها

رآها محمد فاختبأ تلقائيا وقلبه يقفز من مكانه، وكأنها ستراه أول مرة بحياته.. ضحك على حركته الغبية وعاد للسير دون اكتراث ممسكا بهاتفه، متظاهرا أنه لا يراها..

وسار ببطء متتبعا وجودها بطرف عينه، وقلبه يرقص فرحا، لكنها سرعان ما أعادت إغلاق النافذة..

فركل الحجر بقدمه وقال لائما نفسه بسخرية : وقت الثقل الآن، يالغبائي

جلس على الصخرة وعقدة حاجبيه أخذت وجهه، واتصل عنادا بنفسه مرة أخرى بلا تفكير

ردت سارة، فهرع وأطفأ الهاتف

ثم ضرب رأسه وقال: غبي غبي.. ااوه

أعاد الاتصال وقلبه يرن مع الهاتف ولما فتحت الخط قال:

امم كنت أريد..

تنهد من صدره ثم أتبع :

لقد قرأت رسالتك..

لم تجب سارة بشيء

فقال : حسنا هل أختك بجوارك !

لم تجب

فقال : اصدري أي صوت لأعرف أنك تسمعيني

فقالت : أسمعك..

بحلق محمد ووقف منتصبا على قدميه، لم يكن يتصور أبدا أن ترد عليه، ولم يكن قلبه مستعدا لذلك..

للحظة كاد أن يقول لها "أمزح معك، إياك أن تنطقي "

فقد كررها داخله أكثر من مرة ثم صر على أسنانه وجلس متوعدا لنفسه بالقتل لو أضاع هذه الفرصة أيضا..

قال :

سارة، ألا يوجد أحد لديك بالغرفة

فردت بعفوية : لا

أبعد الهاتف عن أذنه وضمه لصدره، وكأن قلبه يرقص فرحا بين أضلعه..

ثم قال : حسنا أنا بالأسفل.. ذهبت لشراء الشاي

فقالت : لم لم تنم !

قال :

أيفصل بيني وبينك جداران وأنام يا سارة بربك..

جلس وقال دون أن يحسب كلامه وهو بكامل انسجامه مع رذاذ المطرالمتذبذب: ما أجمل صوتك..

سكتت سارة ثم فصلت الخط

انفجر محمد، كاد أن يرمي هاتفه بالأرض ظنا منه أنه من أطفأ الهاتف، أعاد الاتصال فوجد الهاتف مغلقا

علم أنها من أطفأته لسبب ما، ودعا الله أن يتلطف بها ويداريها غن عيونهم..

حاول محمد أن يبقى متيقظا حتى الصباح، لكن الليل كان طويلا، كطول حبال الأمطار من السماء إليه، فعاد للشقة بحذر، واستغل أنه نائم على فراش أحضرته سارة. خلع سترته المبللة ونام..

ظلت سارة مستيقظة حتى الصباح، أغلقت هاتف محمد حين طرقت أختها الصغيرة باب الغرفة وأخفته كي لا تشعر بشيء، وواصلت قراءتها لكتاب سيرة ابن هشام حتى نامت أختها فأخرجته ووضعته على الشاحن، لتعطيه لمحمد في اليوم التالي.

ظلت تنتظر حتى أذن الفجر، صلوا جميعا وخلدوا للنوم كالقتلى بانتظار

ساعات الاستيقاظ حينها أخذت سارة الهاتف ونزلت بسرعة لتعطيه لمحمد كي يغادر قبل أن تفيق العائلة.. أغلقت الباب ببطء شديد

ثم تسحبت ولسانها يلهج بتعويذة التخفي، حتى وصلت إليه فتذكرت ما حدث البارحة وكيف صرخ بها لأن الظلام قد خيم على المدينة، ولكنها كانت مضطرة لذلك..

نادته : محمد.. محمد.. محممد

لم يرد. مدت يدها إلى كتفه وهزته ببطء..

وهي تهمس : محممد

استيقظ محمد بفزع شديد، وهرع لما رآها أمامه

فشعرت سارة بانقباضة في صدرها

قالت: أأعتذر أتيت لأوقظك. هل أخفتك؟

فرد بعفوية : نعم..

تلبد وجه سارة ومدت الهاتف لمحمد وقالت: آسفة

فعدل قوله : كلا.. أقصد.. سارة

وقد اقشعر جسده : لقد حلمت بك !!

نظرت إليه سارة باهتمام، ولم تنطق كي لا تزيد ارتباكه

فكرر قوله : سارة..

أقسسم لك لقد حلمت..ضحك وأتبع : لا أكذب لقد حلمت بك

كنت.. مسح وجهه بيديه ثم قال وهو يلتقط أنفاسه :

كنت تجلسين بجواري، وتضعين رأسك على حجري وأنا أداعب خصلات شعرك وأغني لك. أسفل فستان عرس كبيييير، على أحد الأدراج كانت نظرات سارة غير مفهومة، ومحمد كان لايزال تحت تأثير الحلم..

فأمسك محمد يدها وقال: صدقيني سارة.. لا أكذب

سحبت سارة يدها بسرعة وتحولت نظراتها غير المفهومة لنظرة معقدة أكثر بين الغضب والخوف والحب

قالت له : أصددقك.. لمَ لا أفعل !

لم يحدث شيء في الواقع : لقد كان حلماا!!

فقال وعيناه تتقدان بفتيل قلبه : أعلللللم، ولهذا أنا سعيد

لقد عرف طيفك طريقه إلي، ووالله لو زارني لعطلت عمري كله للبقاء بصحبته.. إني أريدك بكل صورك، طيفا، وخيالا وواقعا

كان بياض عيني سارة ناصعا، يحتضن مجرة أحلام محمد، لم يتمن محمد في تلك اللحظة إلا أن يتمكن من ضمها.. لكنه الحرام..

إن دخل علاقة أفسدها، وحلم محمد بها كان عظيما..

قالت سارة : محمد ركز معي الآن، عليك أن تغادر قبل أن تشرق الشمس، ارتدِ معطفك واخرج، بعد ساعات سيبدأ إخوتي بمغادرة البيت ولن تتمكن من الخروج حتى التاسعة.

قال : سأخرج

سحبت عينيها وقالت : هاتفك.. تفضل

أخذه وقال : أردت أن آخذه منك بالجامعة.. لدي ما أقوله

نظرت إليه وكأنها تشكك بعقله: ومن قال أني سأعطيك إياه بنفسي، أو سأقبل بالوقوف معك هناك !

قال : لدي حديث مطول.. وأسئلة بعقلي تريد إجابات

أخبريني أين المشكلة !

قالت على عجل : ليس وقته الآن، هذا نقاش طويل وعلي أن أصعد سريعا..

فقال : وهل سأراك !

قالت : لن أذهب للجامعة اليوم، متعبة بعض الشيء

وودعته سريعا واختفت

اختفت سارة مجددا كأنها محض وهم أو سراب، حزن محمد لقدرتها على الظهور وقتما تشاء والاختفاء وقتما تشاء

لقد كان معلقا بيديها، وهي لا تفعل شيئا سوى الانكماش أكثر وأكثر غير آبهة بذاك الذي تتفتق أجزاؤه ويهذي باسمها ليلا مع نهار..

ليت الأمر يتوقف على لحظة غياب، أو ليت الأمر يتوقف على الاختفاء المفاجئ لمن نحب، لقد كان الأمر أشبه بخلع ظهر من مكانه بلا أدنى اكتراث أو حساب لأعصاب صاحب اليد..

تحولت سارة من حب إلى فايروس سرطاني يتكاثر في دم محمد بلا ترتيب ولا تنظيم مكونا أوراما وحويصلات تفتك به، وكلما حاولوا استئصال شيء به بعد لقائه بوالدها وأعمامها ليحاول إقناعهم زاد انتشار الفايروس في جسمه، لم تعد كريات العقل البيضاء قادرة على الوقوف في وجه خلايا حبه السرطانية، ولم يعد قادرا على أن يقول هذا قدري وسأرضى بما قسم لي بكل بساطة..

***

_19_

مرت أربعة أشهر كانت آخر أشهر لمحمد في تلك البلد إذ كان قد أوشك على إنهاء الفصل الدراسي الثاني وبالتالي عليه أن يعود لبلده ويعيش مع أهله..

التقى محمد بأعمامها السبعة، جالسوه في بيت العائلة سبع نسخ غير متطابقة بالعقل لكن الهيبة والشخصية كانت واحدة، وكأن جينهم الوراثي سائد مختلف عن بقية البشر، كلهم ذوي علم وخبرة وفكر غريب، وبدؤوا بطرح أسئلتهم الغريبة عليه التي لا علاقة لها بالأمر كالمباربات والفن وعلم النفس والفضاء والاختراعات، وبالرغم من ذلك كان محمد خير شاب قد عرفوه، ذكي فطن خلوق وضحوك..

وبعد تمام اللقاء رفضوه، ورفض العم أن يحاول محمد إصلاح الأمر، وسارة كانت متلاشية تماما عن الساحة، تكتفي بالدعاء، حتى أنها لم تحاول أن تحادث محمدا، كما أنها أغلقت حسابها الشخصي على موقع الفيسبوك مما حال بينها وبينه تماما..

أراد محمد أن يسلم الأمر، لكن وكما أسلفنا ماعادت لديه القدرة على التحكم بعقله، لقد أصبح قلبه مسيطرا ينبض باسم لا يفارق مخيلته " سارة " وفقط، وبالتالي ظل محمد يصر على أخته لتتواصل مع والدة سارة وتطمئنه عليها، والحديث يطول بينهما، فدبرا الأمر بتوفيق من الخالق،

وتمكنت الخالة أم سارة من إجبار أعمامها على وضع شروط معقولة يمكن للشاب أن يتجاوزها إن أراد حقا أن يتزوج بسارة بصعوبة بالغة..

كانت أقسى فصول الشتاء تمر على محمد، لقد كان المطر لحنه وبكاءه ودعاءه ورجاءه، وفي آخرها إذ كانت لحظات انجلاء الغمام عن المدينة، وفي مواسم الامتحانات النهائية، اتصل والد سارة على محمد وأخبره أن الأمر لربما سيكون بحال أفضل بعد الاجتماع بعائلته، مطمئنا إياه بقوله : لا أريدك أن تجزع لمطالبهم، لو كان الأمر علي، لقبلتك و قدمت لك أغلى ما لدي بلا شرط ولا مهر، لكن العادات يا بني تقتضي ذلك، ولأجل الفتاة بين رفيقاتها وقريناتها، يمكنك أن تحضر أهلك لنتفق على الأمر يوم الجمعة المقبلة بإذن الله.

كان محمد قد وفر مبلغا لا بأس به لتزوجه والدته، لكن حين يتعلق الأمر بسارة سيكون مستعدا، لإيقاف دراسته الآن، وإيقاف متعه كلها ونومه وكرامته حتى، ليصل إليها.

اتصل بأهله وأخبرهم بأن عليهم الحضور، ولم يفكروا لحظة واحدة بالأمر، فقد كانت سارة بدعاء كل من أحب محمد، لحبه لها ولخوفهم على صحته لو غاب عنها..

وصلت عائلة محمد وإخوته محضرين معهم كل المبالغ التي تمكنوا من تقديمها كمساعدة لمحمد ومباركة منهم له لقبوله وأخيرا بعد كل ما عاناه..

استأجروا شقة هناك، ليتمكنوا من الحضور والعودة وقتما شاؤوا خلال الشهر المقبل إذ كانت تكاليف الفنادق باهظة جدا على عددهم..

جاءت الجمعة، وتوصيات محمد لوالده لا تختلف كثيرا عن توصيات والد سارة لإخوته، فقد أرادا الاثنان أن يتم الزواج..

أوصى محمد والده بالقبول بأي شرط كان، وأي مهر يطلبونه مؤكدا له أنهم لو طلبوا إحضار مجرة بأكملها، سيفعل إن كان ذلك سيوصله لسارة، وقد كان يدرك أن الأمر سيكون معجزا وكان متقبلا لذلك برضى تام، كل ما كان يعزيه طيف سارة في بعض الرؤى وترددات صوتها، وصورتها التي لا تغيب عن باله يوم التقاها ببيت عائلتها كحور الجنان..

أما عن العم فقد أوصاهم بأن يتساهلوا معه بالمهر وأن لا يطالبوه بأمور تعجيزية مهددا إياهم برفضه هو وكسر كلامهم وقبوله له على أية حال، فقد أظهر لهم قبوله الشديد لهذا الشاب ناعتا إياه ب "شاب محمدي " إذ قال :

لقد استخرت الله فيه أكثر من مرة ولم أر إلا خيرا، ويشهد الله أنني قد رأيته بالفعل رجلا صالحا تقيا وعاقلا رزينا، قلبه نقي ومملوء بالحماس وروح الشباب ولا أظن أني سأجد رجلا خيرا منه لابنتي سارة، إنه شاب محمدي الخلق لا الاسم فقط..

***

_20_

أول ما ييجي أنا هحلفلوا..

بقلبي حبو وحوصفلوا..

من ئد إيه وأنا بستناه..

كلمة وحقولها أنا ليك

وقفت حياتي عليك..

هتعيش خلاص جوايا ولا يوم حفرط بيك

غالي وبفكر فيه، وبجد بشتاق ليه

كلمة " حبيبي" بداية

أنا لسى حوصف بيك

بيحسدوني عليك..

يلي مليش بعديك..

أنا كنت إيه قبليك..

بلاش تغيب عني..

أنا قلبي لما لقاك

حب الحياة وياك

تخلص حياتي فداك ولا يوم تروح مني

كانت هذه كلمات أغنية حياتي فداك التي قام محمد بمشاركتها على صفحته الشخصية صباح يوم الجمعة وقامت سارة بتكرارها وسماعها أكثر من مرة، حيث أنها قد فتحت حسابها وأعادت تشغيله، رغبة منها بالتلصص على آخر أخبار محمد، ولتفتح له مجالا إن أراد أن يقول لها شيئا..

بعد صيام روحين تتغذى شرايين كل واحد منهما من قلب الآخر، وفي آخر لحظات قبل أن يطلق المدفع مشرعا إفطارهم وقبولهم، كان محمد يصلي الله ويستخيره ويدعوه كي يبارك له زواجه ويصلحه ليليق بها ويكون لها زوجا صالحا عادلا، لا يظلمها ولا يتسبب بدمعة من عينها، وقد وضع الله مخافة الله أمام عينيه وأقسم أنه إن أتم الله له زواجه، سيباشر بحفظ القرآن منذ الأسبوع الأول الذي ستشاركه سارة بيته وقلبه ليكون أجر حفظه لوالديه ووالديها وكل من دعا لهما..

أما سارة، فقد كانت تحاول أن تتصرف بسلاسة وعلى طبيعتها، لكن ارتباكها كان جليا، إذ أنها الليلة الثالثة التي تستخير بمحمد، وقد حلمت به ثلاثة أحلام، في المرتين الأوائل كانت أحلاما مريبة، رأت محمدا في إحداهما يشرع على فتح باب بيت آخر !

وفي الآخر رأته يقف متكتفا بينما هي تبكي دون أن يحاول مراضاتها وموجها لها ظهره !

كانت سترفض بعد المنامين إذ أنها لم تشعر بالاطمئنان حيال المنامين، لكن الحلم الثالث كان مختلفا تماما، رأت نفسها ومحمد يمشيان بدرب طويل كله نور ممسكان بأيدي بعضهما البعض ويتبادلان أطراف الحديث بسعادة ونهم..

فشعرت أن الله أراد أن يبدد فكرة رفضها فوهبها الحلم الأخير لتطمئن وتسلم..

وهكذا مرت الأمور بسلام، حتى رن جرس الباب وتفضل أعمامها وبعد وقت قصير محمد والرجال من عائلته.

بدأ الحديث والد محمد بعد السلام عليهم والترحيب من والد سارة وإخوته، ثم بدؤوا بالشروط وتفاصيل المهر

كانت الفتيات من حولها يتقاضين من أربعة إلى ثلاثة آلاف ونصف مبلغا مقدما ومثله أو يزيد قليلا يتأخر في حال الانفصال لكن عمها الكبير طلب منه خمسة آلاف مقدم وبشرط أن يتملك محمد شقة في بلدها تكون باسمه لكنها أبسط السبل لضمان مستقبل لا بأس به لهما..

قبل محمد بالشروط رغم أنها كانت تمثل له أمرا عظيما لكنه كان مسلما تماما وموافقا على كل شيء ما دام دعاؤه سيستجاب بعد طول سؤال وإلحاح ليجمع الله بينهما..

انصرفت عائلة محمد بعد إنهاء جلسة الاتفاق على المهر والشروط، كان المبلغ جاهزا مع محمد فاتفق العم مع محمد ووالده للذهاب غدا والقيام بالفحص الطبي قبل الزواج و بعد أن يتم الأمر على خير بإذن الله سيتوجهون للمحكمة الشرعية ويكتب محمد كتابه على سارة لتصبح زوجته الشرعية..

لم ينم محمد ليلتها، كانت عادته كلما شعر بحزن أو فرح شديد يشعر برغبة ملحة بالجري والغناء بعد شكر الله وطلب رحمته ولطفه..

باركت عائلته له وضم كل من رأى ليلتها بقووة، لقد كان يتمنى لو أنه يجد نفسه بالطريق ويقبلها ويضمها ويحملها على أكتافه ويرقص بها فرحا، تمنى أن يصلي صلاة شكر على القمر، بين السحاب أو حتى في إحدى السماوات..

لقد كانت فرحته تعدل الكون بأسره بل الدنيا بكل ما خلق فيها من أشياء نراها وأخرى خارج نطاق رؤيتنا، لكن ما كان ينقصه هو أمر واحد، دورة زمن يعجل بها الوقت لتصبح سارة زوجته وبصحبته بلا أي انتظار أو صبر..

خرج محمد مستأذنا العائلة قائلا : سأخرج لأركض قليلا، لا أريدكم أن تحسدوني على فرحتي..

أتربدون شيئا..

علت أصوات ضحكاتهم فرحا به فقالت له أمه : انتبه لنفسك يا بني وعد سريعا لا تتأخر

فقال مطمئنا إياها : لو مت الآن يا أمي احتفلي بي، واشكري الله أن قبض روحي بلحظة كهذه، قلبي يشرق بسعادته وكأني ما عرفت الحزن يوما..

ربت والده على كتفه وقال : أتم الله لك كل خير تصبو إليه..

والله إني لم أر يوما إنسيا سعيد كما أنت الآن، ولا أظن أني سأرى.. لقد صمت صوما حسنا عن المعاصي منذ صغرك يا بني، وهاهو الله يجزيك بما تستحق.. قبل محمد يد والده وضمه بششششدة وقال : لا حرمني الله منكم جميعا، ثم خرج..

كان يريد أن يستمع لأغنية ما، لكنه فتح الرسائل فوجد إشارة سارة الخضراء مفعلة، فارتبك من سعادته بلا وعي وأرسل لها قلبا أزرق ثم أتبع : ب سارة

ردت سارة عليه بعد دقائق ب : اهلا محمد

فأرسل لها : سأدعوا الله أن يبارك لنا الآن وبعد ذلك سأعاتبك

في قلبي عليك عتب بقدر فرحتي بك، وأسألك عن كل شيء..لكن لدي سؤال واحد.

ردت ب : تفضل

فقال : أسعيدة أنت كما أنا !

اعذربني على سؤالي لكني أخشى أن يكون في قلبك شيء قد تغير

ردت : بقدر سعادتك وزد عليها أني ابتعدت عنك خيارا حتى أتيتني بالحلال.

_21_

لم يكن للفحص الطبي داع بعلاقة طرفين جمع الله بينهما بالحلال، وحافظا على نعمته بأن أتما ذلك بالصبر والدعاء والقيام، فوالله لو كان بأحدهما علة لشفاه الله من دعاء الآخر له وصبره وانسياقه لأمر الله، فهو الكريم المعز الذي يجزي كل نفس بما قدمت وأخرت، ولمن خاف مقام ربه جنة في الدنيا وأخرى في الآخرة مع فارق التشبيه..

في نهار اليوم التالي خرج محمد وسارة كل مع والديه ليقدموا العينات ويروا نتائج الفحص الطبي، لا تظهر النتائج سريعا، تحتاج لثلاث ساعات على الأقل، وقرروا البقاء في الاستراحة لحين ظهور النتيجة لبعد المكان عن سكنهما..

جلست العائلتان واندمج والد محمد مع والد سارة كما فعلت والدته مع والدتها، أما هما فقد كانا جالسين بانتظار النتيجة دون أن يحاولا التحدث، كان محمد يختلس النظر لسارة كل دقيقة وهي كانت تتابع قراءة كتاب التفكير لتقي الدين النبهاني

كان محمد سعيدا جدا، لدرجة أنه قد ينفجر ضاحكا لو قال له أحدهم : كيف حالك؟

كان قلبه يرقص، مطمئنا جدا بخصوص النتيجة واثقا بأن الله لم يكن ليجعل لديه الصبر والعزم هذا كله ليصل إليها ثم يحرمه ذلك لشيء لا علاقة لهما به، وبالرغم من ذلك كان مسلما وراضيا يفكر في الاحتمال الأسوأ

ويقول في قرارة نفسه : حتى وإن كانت النتيجة تحول بيننا فإني سأصلي لله شكرا لأنه جعلني أعيش لحظات حبي لسارة بمرها قبل حلوها، فوالله إني لو سئلت عن عمري لأجبت ب" سارة".. سارة فقط من شعرت بأنني أعيش حقا بها..

أما سارة فقد كانت ورغم رغبتها للنظر إليه وتأمله، مأخوذة بالكتاب وكأن النتيجة تترجم عكس الواقع فكلما شعرت برغبة بالنظر إليه ازدادت تركيزا في الكتاب.. أرسل محمد لها :

لو أنك أحضرت لي كتابا، لأنشغل به عنك كما تفعلين..

وصلها الإشعار وأصدر هاتفها صوتا لكنها لم تلتفت

فأرسل مرة أخرى :

دعينا نتحدث هنا على الأقل.. لكنها لم ترد أيضا

ضحك محمد بشقاوة وقرر أن يزعجها ويفسد عليها متعتها بقراءة الكتاب علها ترد عليه. فبدأ يرسل الملصقات واحد تلو الآخر ورنات الإشعار مزعجة، واحدة تلو الأخرى استنكرت سارة كم الرسائل وكل ما خيل لها أن إحداهن أضافتها لإحدى المجموعات التي تبغضها كثيرا...

فتحت حقيبتها بحثا عن الهاتف ولا يزال يطن بطريقة مستفزة

فتحت قفل الهاتف فإذا بمحمد يضع الهاتف في جيبه وبتظاهر بالاندماج مع حديث العم ووالده، وظل يواصل إرسال الملصقات بإصبعه

فتحت سارة وصدمت لما رأته محمد، ونظرت إليه بعجب واستغراب لم تقرأ الرسائل فقط ملصقات و ملصقات متتاليه

للحظة كانت ستصرخ به ليتوقف عن ذلك، لكنها كتمت الإشعارات، وظلت تبحلق به منتظرة أن ينظر إليها ويكف عن استغبائه وتجاهله إياها..

لكن محمدا بدأ يشارك بالحديث وكأن شخصا آخر من يرسل لها!

فعمدت هي لاستفزازه أكثر وأخفت الهاتف في حقيبتها بعد أن كتمت صوته وعادت لقراءة الكتاب، لكنها في الحقيقة كانت تختلس النظر إليه..

بعد ثوان أراد محمد أن يختلس النظر إليها فوجدها تنظر إليه بنظرة توعد، وابتسامة لا تكاد تظهر ملامحها على وجهه

فضحك محمد، وسحب نظره عنها ناقلا إياه لشاشة هاتفه

ومن داخله يكاد ينفجر ضحكا..

استأذنهم قائلا سأذهب لبيت الخلاء قليلا..

وذهب يركض كي لا تخونه أعصابه وينفجر أمامهم، وقف بالخارج وظل يضحك ويضحك كالمجنون على ملامحها وتركيبة وجهها العجيبة بين غضب وتوعد وضحك

أرسلت له سارة : احمد الله أنهم موجودون.. وإلا كنت سأقتلك

فأرسل لها ملصقا كحالته تماما ينفجر من الضحك وقال لها :

لتتعلمي أن لا تتجاهليني مرة ثانية..

قرأت فأتبع:

حفظت كل ملامحك وملامح الكتاب وأنت لا تزالين تقلبين صفحاته..

أهذا وقته !!

فأرسلت سارة : ليس من شأنك..

فقال : لا تضطريني لفعل شيء جنوني أكثر..

فقالت : مثل ماذا !

فقال : سأسحب الكتاب من يدك أمامهم !

لم ترد فأتبع

أقسم أني سأفعل لو رأيتك تقرئين به مرة ثانية..

كان قد أوشك على الوصول فنظرت إليه من بعيد، وابتسم لها رافعا حاجبيه، ثم وضع هاتفه بجيبه وجلس..

أخفت سارة الكتاب بحقيبتها وشاركت أمها والخالة الحديث..

وبلا مقاومة تذهب عينيها له بعد كل نقاش فتراه منكسا رأسه قليلا رافعا بصره إليها ثم يغير جلسته من وضعية لأخرى دون أن يتزحزح بصره عنها..

وانقضت الثلاث ساعات بخير فقال محمد : سأذهب أنا لإحضارها لتبقوا هنا

وبعد لحظات عاد محمد يركض مسرعا وقدماه لا تمسان الأرض لكثرة سعادته وقال لما وصلهم وأنفاسه تتقطع : الحمد لله النتيجة إيجابية..

نظر لها وهو يتنهد دون أن يكترث بأحد وقد رأى أنها أصبحت هبة الله له التي لا يمكن لأحد على الأرض مهما علت سطوته نزعها منه..

الجميع يبارك لهما، ولما التقت عيناه بعينيها ابتسمت وامتلأت عينها غيثا فزاد بريق عينيها تلألؤا..

ولما كان قلبهما واحدا فالغيث الذي في عينها وصل عينه فسحب نظره كي لا يلحظ أحد تلك الدمعة التي تشكلت في عينيه عجزا عن شكر الله..

وتمنى لو كان باستطاعته ضمها تلك اللحظة لصدره ولا تفرق بينهما ذرة أكسجين واحدة.. لكنه الصبر

ركب الجميع حافلة العم أبو سارة

محمد ووالده بالمقدمة بجانب أبو سارة وسارة وأمه وأمها بالمقعد الخلفي..

كانا يتحدثان سويا، بلا أن يكتبا حرفا واحدا، أرواحهما كانت أقرب من أي لحظة سبقت وقد اتفقت العائلتان أن يذهبا في اليوم التالي لمحكمة العدل ويكتب محمد كتابه على سارة ويصبحان بهذا زوجا وزوجة شرعيين.

نزل محمد وعائلته من الحافلة بعد أن أوصلهم العم أبو سارة لبيتهم، ولكنه تجرأ هذه المرة وقال أمامهم لسارة : مبارك وابتسم ثم لوح لها وقال : بأمان الله..

عادت سارة للبيت وتظاهرت بأنها تشعر بالتعب وترغب بأخذ قيلولة، دخلت غرفتها وأقفلت الباب عليها ثم وضعت كفيها على وجهها وانفجرت

بكاء ونهنهة تخفي اضطرابا عظيما في نبضها، ثم ذهبت نحو السرير وكلما تمكنت من إيقاف بكائها عادت للبكاء مرة أخرى..

أفاقت أختها على صوتها فظنت أن نتائج الفحص كانت سيئة، رفعت عنها الغطاء وهرعت إليها، وهي تردد :

سارة سارة ما بك !

اهدئي اهدئي يا قلبي ماذا جرى !

أخبريني.. سارة.. ماذا حدث بالفحص ؟

ضمتها سارة بقوة وظلت تبكي وأختها تمسح على شعرها وتطبطب عليها

ثم رفعت سارة رأسها عنها وقالت وهي تمسح دموعها :

كانت النتيجة إيجابية.. غدا سنكتب كتابنا..

ضحكت أختها عليها وضربتها بالحجاب الذي خلعته على وجهها وقالت :

ويحك.. ظننت أن كارثة قد حصلت.. وتبكين !

ضحكت سارة وقالت وهي تحاول كبت دموعها: لا أصدق ما يجري.. والله كأني في حلم..

ثم عادت للبكاء بقوة أكبر، وأختها تضمها وتهدئ من روعها وتقول : سبحان من يمنحنا أكثر مما نريد وييسر لنا أمرنا برحمته..

أنت ومحمد تستحقان كل خير الأرض والله..

أما محمد فصلى شكرا لله حالما وصل ودمعت عيناه وهو يقول في سجوده :

يااارب..

من فرط سعادتي لما جايزتني والله إني لأعجز أن أقول شيئا

حتى البكاء يتكتل في صدري ويثقلني فلا أدري من أين لو أردت شكرك أن أبدأ

أحضرت طيفي لها واخترتها لي برحمتك بلا أدنى خيار مني

ثم وليتني شطرها وسهلت أمري ووضعت في جعبتي صبر أيوب حتى إذا وصلت لها شققت لي بحر همي ونجيتني مما كنت فيه..

طوال عمري وأنا أخشى أن أفرح بشيء أو أن أظهر سعادتي تنبؤًا مني بأن الفرح زائل والحزن دائم .. لكنني تعبت حقا وقد قلت في كتابك بشر الصابرين ، فاجعلها يااا رباه بشرى خير وسلام لي ولحياتي واجعلنا زوجين صالحين وبارك لنا دنيانا وآخرتنا وامنحنا الصبر دوما ولا تجزع قلوبنا بالفراق يا أكرم الأكرمين..

***

_22_

كانت الساعة التاسعة صباحا حين غادر العم أبو سارة وزوجته وابنته بيتهم متوجهين لبيت العم أبو محمد ليأخذهم للمحكمة حيث سيتم كتب كتاب سارة ومحمد..

ركب العم محمد ووالده في المقاعد الأمامية لكنه لم يستطع أن يجلس محمد بينهما وذلك كي لا يخالفه شرطي المرور، فجلس محمد بالمقعد الخلفي بجوار سارة ووالدتها، كان محمد يتشوق جدا لرؤيتها لقول شيء لها لكنه أراد أن يتمسك بالحلال لآخر لحظة، لذلك وضع بينه وبين سارة وسادة لتفصل بينهما حتى يتم كتب الكتاب..

دخلا المحكمة وكان العم قد اتفق مع ابنته على المهر بخمسة آلاف دينار أردني مقدما وخمسة آلاف مؤخرا، لكن سارة أرادت أن يطلب عشرة آلاف مؤخرا، خشية أن تقل قيمة مهرها مستقبلا فقالت له : لا أريد أن يحدث معي كوالدتي، الألف دينار التي كانت تساوي الكثير في وقتها الآن لا تساوي شيء !

فأراد والدها أن يحفظ لها حقها، وأن لا يثقل على محمد فيظن أنه يتاجر بابنته، فاتفق معها أن يكتب بالعقد ما يعادل الخمسة آلاف بغرامات الذهب وهكذا تظل القيمة ذاتها محفوظة، وقد أعلم محمد بذلك ولم يعترض أبدا بل وحياه على هذه الفكرة

قائلا : حين أزوج ابنتي سأتعلم منك الكثير يا عمي..

وبناء على ذلك قال العم أبو سارة للقاضي أن المهر خمسة آلاف دينار أردني مقدما ومئة وخمسة وثلاثون غراما من الذهب عيار الواحد وعشرين..

صدم القاضي بطريقة المهر، وحاول جاهدا أن يغير رأي والد سارة، حتى أخرسه كلام والد محمد إذ قال له : سجل يا سيدي القاضي أربعمئة غرام من الذهب مؤخرا نحن نشتري نسبا شريفا فوجئ العم أبو سارة، وأصبح وجه سارة يذوب لكثرة الخجل، ورفض ذلك رفضا شديدا لكن العم أبو محمد أقسم أن لا يكتب العقد بأقل من ذلك ولو بغرام واحد..

وهكذا أتم العقد بالقبول من الطرفين والشهود وبارك القاضي لهما قائلا : مبارك عليكما قد أصبحتما زوجة وزوجة شرعيين

حينها نظر محمد لسارة نظرة نصفها نصر ونصفها راحة وثلاثة أضعاف ذلك حب

نظرت سارة إليه نظرة واحدة وابتسمت ثم أبت عيناها أن تلتقي بعينه وحال الخجل بينهما، حتى إذا ركبا الحافلة جلس محمد دون أن ينكمش على نفسه ولما جلست سارة نظر إليها وهي تعيد الوسادة لمكانها فأمسك يدها وأخذها.. فرفعت نظرها نحوه وقال : زوجين شرعيين وهو ينظر إليها بنصف نظرة، ووضع الوسادة على جنبه الآخر..

كلمات الحب كلها لا تصف ما يشعر به محمد الآن، كان انتصارا حقيقيا له، لأنه وحده من يعلم كم عانى وكم نام تحت نافذتها يدعو الله لها وكم ذكرها في صلاته ودعائه وكم شكر الله على نعمة حبه وصبره حتى وصل إليها، لم يكن صغيرا مراهقا، يحبها باندفاع بل كان حبه لها بروية وتأن وإصرار على الوصول، لقد كان الدعاء صادقا لدرجة جعلت ملائكة السماء تسجد عند عرش الرحمن لتخبره بصدق ذاك الشاب وطهره، فإنه كان على يقين أن لا أحد فوق هذه الفانية قادر على أن يسعد قلبه بمبتغاه سوى من خلق الأرض وكتب الأقدار..

***

_23_

حدد موعد حفل الخطوبة بعد مرور يومين من كتب الكتاب، واتفقا أن تذهب سارة في اليوم التالي مع أمه في عزيمة عائلة محمد لعائلة العم أبو سارة كما تجري العادة دوما لتنتقي الدبلة أو ما يسمى بالمحبس وهو خاتم يعني أن الشخص مرتبط بآخر بطريقة سامية وروحية ذات أبعاد عميقة في علاقة أي اثنين..

وهكذا ذهبت سارة وانتقت واحدة، لم تكن تعرف شيئا عن الأسعار فقط كانت تنظر لهم بعينها وتنتقي، وحين أشارت لإحداهن، وكانت بقدر تميزها باهظة، لكن الوالدة حين اتصلت بمحمد لتخبره قال لها : بربك يا أمي لا تتصلي بي، أي شيء تختاره أخرجيها من المحل وسددي ثمنه لا أريد أن تشعر بأي شيء.. وهكذا جرت الأمور بسلام، وعادوا للبيت..

ثم جاء محمد مع عائلته مساء وخرجت سارة بحجابها ولباسها الذي كان، لم تغير من أسلوبه شيئا، وحضرت أختها وإخوانها جميعا وألبسها الدبلة التي اختارت وألبسته دبلته على مرأى العائلتين ثم قبل محمد يدها وقدم لها باقة ورد وهو ينظر بعينها فبكت وابتسامتها لا تفارق ملامحا فقبل رأسها وابتسم لها وقال بعينيه ما لا يمكن أن يقال مهما بلغت بلاغة الحروف وعمقها ومهما تمكن من صوغ الحروف والكلام..

جلست العائلتان وانشغل الجميع بالحديث وهما كانا جالسين بجوار بعضهما البعض على مقعدين منفصلين تفصل بينهما طاولة صغيرة، فخجلا من الحديث سويا، لكن ضجة نظراتهم كانت أعظم من ضجة الحاضرين..

إلا أن محمدا حاول أن يكسر حاجز الخجل. فقال لها وهو يرفع حاجبيه: أنت زوجتي الآن..

نظرت إليه وابتسمت فأزاحت بصرها للدبلة خجلا

فقال : سأعفيك اليوم من الغزل لأنك أجمل بكثير من أن أقول..

لكن لابد أن أتجرأ فيما بعد، فوفري خجلك هذا للمرات القادمة

ضحكت وقالت : اصمت..

ابتعد قليلا ورتب ياقة قميصه. فضحكت عليه..

فاقترب قليلا وقال: ألا يحق لي أن أغتر بنفسي منذ اليوم وصاعدا وقد أصبحت زوجا لسارة؟

أمالت رأسها وضحكت دون أن تنظر إليه فقال: والله لأجل ابتسامتك هذه وحدها قليل كل ما فعلت وما فعلته عائلتك بي..

قاطعهما والد سارة ليتناقشوا بخصوص تفاصيل الخطوبة، حيث أنهم كانوا قد أتموا حجز صالة الخطوبة التي اختارتها سارة ومحمد بكامل رضاهم بصحبة العم أبو سارة لبعد يوم غد، وحين وقفت عائلة محمد مودعة، قال محمد لسارة : أعطني رقم هاتفك..

تلككت سارة وجابت بعينيها ثم نظرت نحو والدها ونحوه فهز رأسه مستغبيا:

هي لقد أصبحتما زوجين شرعا!

ظلت سارة تبحلق بمحمد، فأمسك هاتفها من يدها دون أن ينظر لها وأرسل لنفسه رسالة " أنا زوجتك "

ثم ضحك وقال : سأقرأ ما أرسلتيه حين أعود للمنزل..

وخرج بصحبة عائلته يرقص فرحا، ويدندن

بينما يضحك الجميع عليه، سعيدين به

قرأت سارة الرسالة حين عادت ولم تفارق وجهها الابتسامة..

وضعت باقة الورد جانبا، فقالت لها أختها : يااااه ما أجمله يا سارة، يبدو أنه شخص ضحوك ورائع حقا..

قالت سارة : حقا إنه كذلك.. أنا سعيدة بباقة الورد إنها أجمل باقة وصلتني في حياتي

فقالت أختها بسخرية : أجمل باقة!

أوتحسبين باقات الورد التي قبلها باقات

وضحكتا الاثنتين

فإذا بمحمد يتصل على سارة

رأت سارة الرقم لقد عرفته حين كان بالشقة السفلية حفظته لكنها ادعت الاستغباء وردت :

ألو.. السلام عليكم

فرد محمد : وعليك السلام ورحمة الله كلها وبركاته

قالت : عفوا من معي !

فقال : زوجك !

احمر وجه سارة فاقتربت أختها من الهاتف وهي تقول : ماذا قال ؟ أخبريني ماذا قال !

فضربتها وقالت له : محمد دقيقة

كتمت الصوت وحذرتها من أن تقترب وهي تحادثه واعدة إياها أن تخبرها بكل شيء حين ينتهون

أعادت وضع السماعة وقالت : احم.. أنا معك

فرد : منذ زمن طوييييل وأنت معي، لكنك الآن بت واقعي ومستقبلي وكل شيء..

ارتبكت سارة فقالت : أ.. وصلت بيتك

فقال : نعم..

فقالت متهربة : الحمد لله على السلامة

أعتذر لكني مع العائلة لا يمكنني الرد الآن..

فقال : لا بأس، عليك أن تنامي جيدا استعدادا للحفلة بعد غد..

كم أتشوق لرؤيتك

فقالت : نعم.. اممم سأذهب حسنا

ضحك وقال : أنا سأبقى على الخط أقفلي الهاتف وقت تشائين..

لا يمكنني أن أقطع طريق شيء يوصلك إلي..

فقالت :حسنا نتحدث فيما بعد

فقال مراعيا إياها أرسلت لك أغنية على الماسنجر أتمنى أن تسمعيها ألف مرة

بأمان الله يا.. زوجتي

خجلت سارة ولم ترد.. صمتت قليلا ثم أقفلت الخط حين شعرت أنه بالكاد

يسمع نبض قلبها

وفتحت الرسائل سريعا لترى ما أرسله

فوجدت رابط لأغنية " احضني قوي " التي كانت كلماتها :

ا"سمحلي يا حبيب عمري بكلمة

بعد ما قلبي اتعلق بيك

مش هقولك أكتر من كلمة.. بس اوعدني بيها أكيد

ده انا بس هعمل معاك اتفاق في الحياة متروحش بعيد

من الليله دي

هنسى الجراح وبالسلامه الي راح ما انت معايا

هحتاج لايه أنا آه ولا ايه

وأجمل عيون في الدنيا معايا

احضني قوي بقولك قوي خليني دايب وماتصحنيش

من النهاردة

انا كلي ليك واللي اتمنيته معاك هيحصل

قال يعني قلبي خلالي حاجة بس المهم اللي بينا يكمل

ونوصل لحلم حلمنا بيه

يجمعنا بيت ونحافظ عليه"

***

_24_

كل ما كان من شعور بكفة، وشعورهما لهذه الليلة بكفة أخرى

إنها المرة الأولى التي يقفان أمام المرآة لساعات ليعتنيا بمظهرهما من أجل أحد، الحفلة الأولى التي سيكونان هما أصحابها لا أحد المصفقين، ستحوطهما نظرات العالم بشغف وسيصفقون لهما كلما تحركا ابتعدا أو اقتربا..

المرة الأولى التي تنكشف بها سارة على رجل غريب، والتي يرى فيها محمد أنثى فاتنة بملء عينيه بلا أن يغض بصره أو يستغفر الله إثر ذلك..

والمرة الأولى التي يتصرف فيها مخطوبين بطريقة كهذه داخل غرفة التصوير..

كانت سارة تجلس على أرجوحة بانتظار محمد بعد إعادة مراسم الجاهة وحضور كل أهالي محمد الذين تمكنوا من السفر من بلاده، لكن سارة أبت أن تزف مع العريس بين جموع الرجال مكمكمة بغطاء العروس..

تنظر سارة لنفسها إذ ترتدي بدلة بكتف واحد تشبه بدلة الطاووس، وتسب نفسها بكل ثانية وهي تفكر بداخلها : لما كل هذا، ما أقبح منظري الآن أمامه وقد تزينت لأجله، لما فعلت بنفسي هكذا..

ولو كان الأمر بيدها لأوقفت الحفل وبدلت ملابسها وعادت لحجابها وجلبابها..

دخل محمد ملهوفا لرؤيتها طرق الباب وهو يردد في داخله : يارب ثبتني، يارب ثبتني..

وقف وعد للعشر تنازليا ويده على مقبض باب الغرفة، ثم أخذ شهيقا وزفيرا وعدل وقفته، طرق الباب ثم دخل.

ولما رآها جالسة على الأرجوحة كحورية سقطت من الجنة تنتظره بفستان ألوانه ما بين جمال زرقة السماء وتراب الأرض، كطاووس هادئ شعرها الكستنائي ويداها النحيفتين، تمسك بباقة ورد بيضاء..

أنسته اسمه حقا لا مجازا، نسي عمره جنسه أمه وأخته وحتى الأرض التي يقف عليها..

التقت عيناه بعينيها وابتسم هو بلا أن يرف جفنه من صدمته، وابتسمت هي خجلا ثم سحبت عينيها سريعا، وتوردت وجوههما بلا شعور..

دخلت المصورة بينهما وبدأت بإعطائهم تعليمات اللقطات وحركات الصور.

كانت سارة في قمة خجلها، وتمنت لو ينتهي الأمر سريعا، لكن المصورة لم تحاول استيعاب خجلها أبدا، فكلما طلبت منهما أن ينظرا لبعضهما البعض، سحبت سارة نظرها سريعا، وكلما قالت لهما اقتربا ذابت سارة خجلا..

حتى إذ قالت له اجلس على الكرسي، وأنت اجلسي في حجره

حينها قالت سارة : لاا، بالطبع لا لن أجلس

ومحمد كالمسكين لم ينبس بحرف واحد، كان غاااارقا بخجلها يتأملها بكل لحظة وكل حركة وابتسامة وارتعاشة حين يقترب منها، لكنها حين قالت ذلك ضحك..

فقالت له المصورة : لتقل شيئا لها.. ما بك

فابتسم ونظر لسارة ثم رفع أكتافه وهو ينظر لها بقلة حيلة، فقد كان جمالها سببا كافيا لاجتثاث لسانه، كما أنها المرة الأولى التي يدرك بها محمد حقا ما معنى لعثمة الخجل..

لكنه كان سعيدا، سعيدا جدا بها وبخجلها ولعثمتها حين تنظر بعينه..

أصرت عليهما، فجلست سارة على أطراف ركبتيه، فطلبت منها أن تضع يديها على كتفه وتنظر له، لكنها أبت وأمسكت بباقة الورد دون أن تقترب منه أو تنظر إليه حتى..

أما الحركة الأخيرة فقد طلبت منه أن يقبل رأسها فقبلها، ومنها أن تقبل خده فرفضت سارة رفضا قاطعا..

حاولت المصورة جاهدة معها لكنها لم تحاول أن تسمع منها حرفا حتى قال محمد للمصورة : دعيها على راحتها..

فقالت لهما : أقسم أنكما أول وأجمل مخطوبين يمران علي بكل هذا الخجل والارتباك..

دخلا صالة الاحتفال على أسماء الله الحسنى، وقفا على المنصة قليلا..

وبعدها بدأت رقصتهم الأولى...

حبيبي وأنا جنبك..

تعرف بحس بإيه..

وأنا بحضن قلبك ببقى عايز أقولك إيه..

وضعت المصورة يدا محمد على خاصرتها ويداها على أكتافه موصية إياهما أن يتحركا ببطء ويطيلان النظر لبعضهما البعض عن قرب

لكنهما لم يفعلا شيئا مما قالت، فكانت المسافة بينهما تتسع لشخص ثالث وسارة تهرب بوجهها وعينيها عن محمد، بينما كان محمد غارقا بها، ولا يريد لتلك اللحظة أن تنتهي..

يا محلا الدنيا وأنا جنبك..

يا كل منايا محتاجلك

حبيبي يا عمري..متسبنيش

وحياة أغلى حاجة عندك..

وما يحرمنيش منك.. وما يبعدنيش عنك

وبعد ذلك نزلوا عن المنصة على كلمات أغنية" إنت أجمل ما شافت عيني" التي تبدأ ب

إنت أجمل ما شافت عيني.. انت فرحة عمري وسنيني

إنت كل الحياة.. ومعنى الحياة

يا بنت الإيه..

لو عشت أحلف طول حياتي كلها، مش حقدر أوصف بحبك قد إيه

هحتاج حياة إتنين تلاتة على حياتي

عشان أوصف يا حياتي بحبك قد إيه..

كان محمد مهتما جدا بانتقاء الأغاني الخاصة بهما، فقد أراد أن يهديها كل حرف من تلك الأغنيات على وجه الخصوص لا مجرد حروف فقط..

رقصا سويا، محمد يصفق لها، وساره لا تكاد تتحرك وتنظر للحضور لا لمحمد وكأنهما لا يعرفان بعضهما البعض

ثم جلسا على المقعد..

ورقصات متتالية لقريبات محمد

فإذا بإذاعة القاعة توقف الصوت

وتنادي على العريس بأن يذهب إليهم..

تظاهر محمد بعدم سماعه لهم، على أنه مشغول بمحادثة أخته

فقالت له سارة : محمد، ينادون عليك !

فقال باستنكار :علي أنا !

فقالت : نعم..

ذهب محمد بعد أن عاد وضع الأغاني كما السابق

وأكملوا الحفل، ثم بعد دقائق أطفأت أنوار القاعة وسلط ضوء واحد على محمد يقف على المنصة ممسكا بيده المايكرفون

ويقول :

ماذا أقول لك..

أحبك..

أحبك بالعربية بالإنكليزية بالفرنسية بالألمانية بالفلسطينية الأردنية السورية الجزائرية المغربية العراقية اللبنانية

ماذا أقول، وكيف أقولها

أحبك

بكل لغات ولهجات العالم..

صفق الجميع له بحرارة ثم بدأ بنزول الدرج والسير نحوها وعيناها معلقتان به وهو يلقي إحدى قصائد نزار قباني

لم أعد داريا.. إلى أين أذهب

كلَ يومٍ.. أحس أنك أقرب

كل يوم.. يصير وجهكَ جزءاً

من حياتي.. ويصبح العمر أخصب

وتصير الأشكال أجمل شكلا

وتصير الأشياء أحلى وأطيب

قد تسربتِ في مسامات جلدي

مثلما قطرة الندى.. تتسرب

.. اعتيادي على غيابك صعبٌ

واعتيادي على حضورك أصعب

كم أنا.. كم أنا أحبك حتى

أن نفسي من نفسها.. تتعجب

يسكن الشعر في حدائق عينيك

فلولا عيناك.. لا شعر يكتب

منذ أحببتك الشموس استدارت

والسموات.. صرن أنقى وأرحب

منذ أحببتك.. البحار جميعا

أصبحت من مياه عينيك تشرب

حبك البربري.. أكبر مني

فلماذا.. على ذراعيك أصلب ؟

خطئي.. أنني قد تصورت نفسي

ملكا، يا صديقتي، ليس يغلب

.. وتصرفت مثل طفل صغير

.. يشتهي أن يطول أبعد كوكب

سامحيني.. إذا تماديت في الحلم

.. وألبستك الحرير المقصب

أتمنى.. لو كنت بؤبؤ عيني

أتراني طلبت ما ليس يطلب ؟

أخبريني من أنت ؟ إن شعوري

كشعور الذي يطارد أرنب

أنت أحلى خرافة في حياتي

.. والذي يتبع الخرافات يتعب

قربت المصورة على عينيها والتقطت التماعتهما والدموع التي حاولت سارة منعهم لكنهم سقطوا على خدها تباعا، حتى إذا وصل إلى المقعد الذي تجلس عليه أمه فقال :

أنت أغلى النساء في نظري بعد والدتي

فقبل رأسها وضمها لصدره

وأكمل سيره نحوها فلما رأى دموعها جلس على الطاولة التي تقع أمامها ثم وضع كفه على فمه مرتكزا بها على إحدى ركبتيه واضعا المايكرفون على ركبته الأخرى وهو ينظر بعينيها ..

ظلت سارة تنظر بعينيه ثم مسحت دموعها بيدها ورفعت أكتافها وقالت : لا أعرف لما.. فقال :

أحبك حبا لو علمت به الملائكة لتمنت أن تكون من البشر

أحبك حبا لو علمت به الأرض لنبت الشجر دون أن يهطل المطر

أحبك حبا لو علم به الحب نفسه لأصبحت كلماته من قلبي تعتصر

I love you..

Do you love me?

***

_25_

" أبقاك الله محبا لي للأبد❤ "

هذا ما أرسلته سارة لمحمد بعدما انتهت حفلة الخطوبة على خير واستعدت للنوم بعد يوم طويل متعب..

أمّأ محمد فلم يقرأ الرسالة إذ كان مشغولا بالعائلة والأصدقاء والتباريك والتهاني، كما أن هاتفه كان قد نسيه بمحل الحلاقة وأوصله الحلاق لزوج أخته فحين انتهى الحفل أعاده له قائلا : ذاهب لتراها..

بالطبع لن يظل لك عقل وذاكرة لشيء آخر..

ضحك محمد وشكره، ثم استأذن الجميع ودخل لينام، كان يحتاج لعامين من النوم بعد هذا التعب والاستنزاف العاطفي الذي حدث معه اليوم، فقد نبض قلبه عن خمسة أعوام قادمة وكل نبضة تعدل خمسة أعوام ويزيد مما فاته، فكل شيء اليوم كان مختلفا جدا ومميزا جدا وله طعم آخر..

أمسك محمد هاتفه وفتح القفل وهو يجلس على طرف السرير ليرى إن كان هنالك شيء مهم ثم يقفل الهاتف ويضعه بالوضع الصامت وينام..

لكنه قرأ إشعار رسالة عادية من " زوجتي " هذا الاسم الذي منحه محمد لسارة منذ أن قالها القاضي، امتلأت عينا محمد شغفا وشوقا، فتح الرسالة وقرأها فامتلأ قلبه فرحا وامتنانا رمى بظهره على السرير، توسد إحدى يديه

بينما يمسك الهاتف بالأخرى، يريد أن يرد عليها برسالة جميلة كالتي أرسلتها..

أراد أن يرسل" وأبقاك الله محبة لي "، لكن أمرا ما استوقفه وأخذ يفكر بشرود :

لقد قالت لي ذلك لأني أحبها، وهي تعرف ذلك..

فقد قلت أحبك لها أكثر من مرة والأغنيات التي أهديها حتى القصيدة، أما أنا فما الذي أدراني بأنها تحبني، لم تقلها لي ولا حتى مرة واحدة، حتى أني حين أقولها تتلاشاني..

أقفل الهاتف وفي قلبه ضيق يحاول تذكر مرة واحدة قالت فيها سارة شيء كذلك له دون فائدة

توسد يده الأخرى وهو يراقب أخيلة السيارات المتشكلة على سقف غرفته من النافذة، ثم بدأ بتذكرها من آخر لحظة حتى أول لحظة رأته فيها، دمعة عينها وارتباكها، رقصتهما، غرفة التصوير، وثم لحظة عقد القران وهي تقر بأنها موافقة، والتقرير الطبي فيما قبل، وصولا إلى الرسالة الأولى التي أرسلتها له، وهو يتذكر مشهدا مشهدا ولحظة لحظة ثم قال :

يال غبائي، أستقبل سارة بي وهي لا تحبني مثلا !

إنها عنيدة جدا لا يمكن لأحد أن يجبرها على شيء، إنها تحبني وكثيييرا..

لكن أيضا أريد أن أسمع ذلك منها، لا يكفيني الشعور والتخمين

إما أن تكون فتصدق حبها بقولها، وإما فلا تكون وسأظل أحبها وحدي، لكن علي التأكد من ذلك!

سأتصل بها الآن.. أمسك هاتفه فتح حافظة الأسماء فالتفت للساعة :

اووه الثانية ليلا ! الوقت متأخر جدا لن أتصل الآن.. لا بد أنها نائمة..

تفقد وقت إرسالها للرسالة فكانت الساعة الثانية عشر وعشرون دقيقة، احتار قليلا وتردد كثيرا لكنه لم يتمكن أن يمنع نفسه من ذلك..

رن الهاتف أكمل الرنة الأولى وقلبه ينبض بلعثمة لم يشهدها من قبل، ويكتم أنفاسه ليتمكن من سماع الرنة..

الرنة الأول، الثانية

قال سأفصل ! لكنه أصر معزيا نفسه بأنها ستسجل لديها مكالمة واحدة فلم لا أكملها حتى النهاية!

الثالثة ثم فتحت سارة الخط

قالت سارة : الو..

ففصل محمد بوجهها، ثم وقف سريعا في منتصف الغرفة وهو بالكاد يلطم من غبائه .. اتصل مجددا فردت سارة بصوت رقيق هادئ : الو !

رد محمد : الو.. السلام عليكم.. أ أزعجتك أعتذر..

فقالت : لا بأس، وعليكم السلام، أهناك ما تريد قوله ؟

فقال محمد بعد أن حاول ضبط أنفاسه وهو يحك رأسه ويصر على أسنانه :

امم احمم

ثم نفث الهواء من صدره للخارج دفعة واحدة وقال: سارة أتحبيني ! !

صدمت سارة من السؤال، بلعت ريقها ثم أبعدت الغطاء عنها واعتدلت ثم قال : كيف!

قال : أجيبيني..

أ تحبيني أم لا !

لم تجب سريعا، فقال : لقد أصبحت زوجك.. ليس عيبا ولا حراما ولا ذنبا يطولك إن قلتها !

ها أنا أعيدها مرة أخرى ... أنا أحببببك ..أتحبينني أنت؟!

اضطربت نبضات سارة وارتفعت حرارتها حاولت أن تغير الموضوع فقالت : أتصلتَ بي لتسألني؟ !

فقال : سارة، أجيبيني فقط لا تتهربي من سؤالي، أتحبيني أم لا..؟؟

تلككت سارة بحديثها ثم قالت بعد أن صرت على عينيها وصوتها يرتجف بأنفاس ملعثمة : ن نعم..

فهدأ صوت محمد لما وصله من ارتباكها وقال بهدوء : نعم ماذا يا قلبي !

وبعد كل حرف يقوله يحبس نفسه لينصت بعمق لما تقول..

فبدأت أنفاس سارة بعزف لحن خجل واضح وجلي اجتاح رئتي محمد ببطء

فلم يحاول مقاطعتها أبدا وكأنه تخدييير تام أدى لشلل لسانه، جلس على السرير حريصا أن لا يفوته فراغ موسيقي من هذا اللحن..

وسارة تجاهد لتقولها لكنها ثقيلة جدا على لسانها مثقلة بخجل وخوف وارتباك وحرص فخرجت بعض الأحرف منها مبعثرة وأشبه بالهمس:

أ أ ح بك....

كانت أغرب حروف يسمعها محمد، حروف تتشكل للمرة الأولى وتجتمع للحظة الأولى لم يسمع بها من قبل ولم يقلها من قبلها أحد.. الآن أدرك محمد ما العجيب بأغنيات أم كلثوم وأصحاب الطرب القديم، إن السر يكمن فيما قبل وما وراء الشيء أكثر من الحروف بحد ذاتها، نشوة الموسيقى تأسر القلب وتأسر الروح فتتغلغل الحروف بالوجدان بطريقة مختلفة جدا، لم نعرفها نحن في زمن السرعة، إذ أننا حتى في مشاعرنا نقولها بسهولة ويسر وطلاقة ونبالغ بالوصف بلا حساب..

حب سارة مختلف جدا، بطابع جديد وطعم جديد لم يذقه أحد من الخلق بعد. قال محمد بذات الهمس : لقد طلبتها ليطمئن قلبي، لكنه من فرط الاطمئنان شل.. أقسم، شل يا سارة..

أخذ جرعة من أنفاسها ثم قال منهيا المكالمة : تصبحين على خير يا..

أخذ نفسا عميقا ثم أتبع : قلبي

حاول محمد النوم جاهدا لكن الشعور الذي وصل إليه أفقده القدرة على التحكم بأي شيء ظل جسده ثقيلا متمددا على السرير مستلقيا على ظهره يغمض عينيه طويلا ثم يجد نفسه لا يزال مستيقظا، يحلم بها ويتخيلها وهو بكامل وعيه، لقد أصبحت سارة حلم اليقظة وحلم اللاوعي، وحلم المستقبل، إنها حلم يتحقق بروية أمام عينيه يتشكل كالسراب، يعيشه ثم يختفي بلحظة.. أما سارة فقد استفاقت وقفت على نافذتها وهي تفكر بداخلها: كيف أشرح له أني لا أستطيع قولها..

وأنه لا يزال أول رجل في حياتي أحادثه، وأنها كلمة ذو وقع عظيييم داخلي..

أوكل من قالها أحب ! لكن..

هو أيضا يحتاج لسماعها فالحب تبادل..

يووووه

لا لن أبادله الحب قولا إنما شعورا، ما الفائدة من كلمة تقال ألف مرة لمجرد الرد أو المجامله!

سأجامل بكللل شيء إلا هنا، لن أقول حرفا إلا حين يرغمني قلبي على ذلك، حين يشل عقلي لفرط الحب وينطق قلبي بها..

لن أحب أيضا بالاستنساخ، عليه أن يفهم ذلك ويستوعبني..

وكم أتمنى أن يفعل..

***

_26_

يوم الجمعة..

هو يوم العائلة، يوم الإجازة الرسمية، وعيد المسلمين، أما هنا في عائلة سارة فله طقوس مختلفة نوعا ما تزيد هذا اليوم تميزا؛ إذ يضع كل أفراد العائلة هواتفهم فوق الخزانة ولاتستخدم طيلة هذا اليوم إلا للضرورة..

تعد الخالة أم سارة طبقا مميزا، ويستحم الجميع صباحا الذكور قبل الصلاة والإناث أثناء الصلاة، فإذا عاد العم أبو محمد جلست العائلة كلها في غرفة الجلوس والتلفاز مغلق، يتبادلون أطراف النقاش ويتحدثون حول مجريات الأسبوع والتغيرات التي تحدث، ويستعلم كل من لديه سؤال أو أمر لم يفهمه فيتناقشون به.

كانت هذه سياسة والدي سارة ليضمنوا بقاء وحدة هذه العائلة، إيمانا منهم بأن الطفل يتعلق بما يتذكره من الماضي، وقد نفذا هذه السياسة منذ الطفل الأول.

اتصل محمد بالعم أبو سارة على التاسعة صباحا ليخبره بأنه و عائلته سيزورونهم بعد صلاة المغرب إن أمكن ذلك، فرحب بهم، وأخبره أنهم بانتظارهم..

اعتاد العم أن يطرق باب بناته ليوقظهم باكرا في تمام السابعة تقريبا، ليستغل هذا الوقت بمحادثتهم إذ أنه يجد في حديثهم متعة ونكهة مختلفة وكأنهما المهدئ الوحيد الفعال والمهرب الوحيد له من وحل متاعب الدنيا..

لكنه هذه المرة أخر ذلك لترتاح سارة بعد حفلتها..

طرق العم على باب غرفتهم، فكانت سارة مستيقظة، اعتاد جسدها أن يستفيق باكرا، حاولت أن تستغرق أكثر بالنوم لكن عبثا، فبدأت بترتيب غرفتها..

طرق الطرقة الأولى ففتحت سارة الباب وقالت لوالدها بابتسامة : صباح الخير..

فرد والدها بهمس وهو يرفع حاجبيه : صباح الورد، أراك مستيقظة..

ثم نظر نحو أختها الصغرى فوجدها لاتزال نائمة

قالت سارة : نعم، لم أتمكن من النوم أكثر..

أشار نحو أختها بعينيه، فقالت : لا تزال نائمة، تأخرت حتى نامت البارحة..

فخرج من الباب مشيرا لها بيدها لتأت قائلا : الحقيني

فقالت : أأوقظها !

فرد : لا لا..

أريد أن أتحدث معك وحدك هذه المرة..

أغلقت سارة الباب على أختها ولحقته، لكن العجيب بالأمر أنه لم يجلس بالصالة كالعادة إنما توجه لغرفة الضيوف، وحين دخلت سارة طلب منها أن توصد الباب..

تعجبت سارة من ذلك، فقد اعتادت أن يجالسها وأختها وهو حريص جدا على أن تكون الاثنتان بالمجلس، كي لا تشعر إحداهما بالضيق إذ نسيها ولم يدعُها للمجلس..

جلست سارة على الكرسي المجاور لوالدها إذ كان يضرب بكفه الكرسي ويقول لها : تعالي هنا..

فلما جلست قال :

اسمعيني يا بنيتي جيدا..

فوالله قد جئتك اليوم لأول مرة أتودد إليك عل الله يفتح بصيرتك وتفهمي ما أقوله..

تعلمي أن ما يقوله والداك لك، لا يمكن أبدا أن يكون شرا لك، إنما قد يكونا جاهلين، فيريا الخير بموضع خاطئ، فيجرانك لسوء..

وإما أن يكونا عالمين مستبصرين لكن نظرتك قاصرة عن رؤية الخير بقولهما..

ولا أظنك ترين والدك من الجاهلين..

أم ماذا !

ضحكت سارة وقالت بعفوية : بالطبع لاا

فقال وهو ينظر بعينيها بعمق : إذا دعيني أعلمك، وخذي عني ما ترين فيه العقل والرشاد قناعة، فإن وجدت لبسا بأمر ما فناقشيني، إياك أن تهزي رأسك دون اقتناع..

فوالله ما نذرت عمري لكن لأرى إحداكن تقاد كما تقاد الدواب لمأكلها ومشربها..

الآن يا بنيتي، تضعين أقدامك على عتبات طريقك مع هذا الرجل، ووالله ما وجدت فيه إلا خير الصفات، إنه رجل ذكي فطن متحدث خدوم وصبور ويعرف كيف يحتال على الأمور حتى يملكها، بشوش وصاحب خلق عظيم سخي وخجول بالمعصية وقد أبصرت الله في قلبه متربعا..

وقد استخرت الله فيه فرأيته بمنام جميل، وشعرت بطمأنينة له، ووجدتك تميلين له، فوضعته بأكثر من اختبار واجتازه بنجاح بل وتفوق على نفسه بذلك..

وجل ما أتمناه أن يكون لك زوجا صالحا، فإن كان كوني له كذلك ردا على خيره، وإن لم يكن فجزاء الإحسان عند الله جنات عرضها السموات والأرض والله يحب الصابرين، وآخر ما في الطريق وما لا أتمنى أن تؤول إليه الأمور يوما فالطلاق سبيل الخلاص والتسريح بالمعروف..

لكن

عليك أن تتروي وتأخذي الأمور بعين العقل الآن وتؤجلي دور العواطف قليلا بمرحلتك الأولى..

ستعيشين الحب، فذاك جزاء قلب صام عن الحرام في زمن كثرت فيه المعاصي والفتن

لكن لدينا قاعدة شرعية خلاصتها أن من عجل بشيء عوقب بحرمانه، فمثلا إن قتل الوارث مورثه استعجالا بالورثة حرم منها..

وكذلك بالحب..

محمد أصبح خطيبك، ولكن شرعا فهو زوجك..

يحق له أن يراك بشعرك أعلم ذلك، إنما من باب الحرص عليكما ومن باب الحب أريدك أن تلتزمي به حتى يأتي ليلة زفافك وتتوجين زوجة له عرفا ودينا..

قد أتمكن الآن من إلزامك بذلك، فأنا أعلم أن ابنتي لن تخرج عن أمري لكني أريدك أن تكوني مقتنعة تماما بذلك..

ارتدي ما شئت قميصا وبنطالا، فستانا، طقما طويلا لكن دعي الحجاب مانعا وفاصلا، فلا أسهل من فض الزواج الآن ولا أكثر من قصص الزواج التي هدمت قبل أن تبدأ..

أريدك أن تتمهلي، وأن تقدري نفسك حقا، لست فتاة عادية، ما دفع محمد للتمسك بك لهذا الحد ليس جمالك الخارق، كثيرات هن الفتيات الأكثر جمالا منك، إنما ندرة جوهرك، خجلك وحياؤك وارتباكك، نقاؤك وصفاؤك.. لذلك كلما قبضت على هذا الجوهر أكثر ونزهته عن المعصية أكثر ستشعرين بحبه أكثر، وسيتعلق بك محمد أكثر وأكثر..

كانت ابتسامة رضى تملأ ملامح سارة فأتبع :

اليوم ستزورنا عائلة محمد مساء، وقد لا تتاح لنا فرصة للجلوس هكذا مرة أخرى، لكن وصيتي لك حاضرا كنت أم غائبا، لا تقبلي أبدا أن تكوني كأي أنثى أخرى، ما أقوله لك الآن فعلته أمك بي من قبل، لم أرها مكشوفة الشعر إلا في يوم الخطوبة بعد كتب الكتاب، وبعد ذلك بقينا سنة كاملة نتزاور فيها ونجلس كالغرباء، لم أطل منها سوى ابتسامة ونقاش بعيد عن الحب أو الغزل، لكني أقسم لك أني كنت أعود من كل لقاء محمل بشوق أكبر وأعظم لها، وأني في كل ليلة وحتى آخر لحظة لم أكن أصدق أنها قد تكون لي وحدي ذات ليلة فأسجد لله واسمها في كل دعاء ليجمعني الله بها، حتى إذا حدث ذلك فسجدت شكرا له وحمدا على نعمة تعدل الدنيا بكل ما فيها..

ستعيشين أجمل قصة حب في بيته، وأعطي لنفسك الآن فرصة كافية لفهمه والتعرف عليه، واتق الله في سركما فالرجل مرهون بيد المرأة لا تصدقي أنه ثمة رجل يقدر على أنثى تضع لها حدود..

قدسي نفسك ولا تزهدي بها، وهذه الورقة للآن لا تعتبريها سوى مجرد كلام على ورق وتصريح لتعارف بالحلال

وقفت سارة وقبلت يد والدها ورأسه وقالت له بعد أن أجلسها بحضنه : لا حرمني الله منك يااااارب

ثم وضعت شعرها خلف أذنها وهي تنظر ليديها وترفع حاجبيها : اممم لكني...

لن أرضى بلبس الحجاب..

ضحكت ثم قالت : مادام كلاما على ورق سأقدس نفسي كما قلت وسأظل بجلبابي وحجابي..

سيراني دونهما حين نتزوج بحق فقط..

ضحك والدها وقبل رأسها فضمته بقوة وضمها وهو يقول جملتها المفضلة : رضي الله عنك يا عين والدك أنت...

سمع صوت غرفتها قد فتح فقال لها : قومي بسرعة قبل أن تراك أختك فتقيم علي الحرب..

ضحكا وخرجا سريعا فجلسا في الصالة ولما وصلت رحب والدها بها قائلها : يا أهلا يا أهلا بأميرتي .. يحق لك أن تنامي أنت.. طبعا هذه أميرة والدها

وأختها تفرك بعينها وتقول وهي تضحك: أحتاج لسنة ضوئية من النوم...

***

_27_

صباح الخير..

عيشي يا سارة ودعيني أعيش فيك، فلقد طفت بلاد الله الواسعة وتركت أهلي هناك لأحيا بك، بتناقضاتك ومزاجيتك وغرابتك..

لا تقلقي من اضطرابي أحيانا وصمتي أحيانا كثيرة فالفرق بيننا شاسع، أنت من كوكب وأنا من كوكب آخر، ومن الطبيعي جدا أن يحدث احتكاكات أحيانا وأحيانا أخرى أن نغرق بصمت مقبع..

إياك يا سارة أن تتغيري..

إياك..

هذا ما قاله محمد قبل أن تفيق سارة وتجالس والدها

إذ كان يجلس بجوارها وهي تحاول أن تشرح له كم الغرابة التي تعيشها، إنما لم تسمع صوتها أبدا ولا تذكر ما كانت تقوله..

كل المؤشرات تخبرها أنها على صواب، وأن عليها التمسك بسارة التي كانت دون أن تحاول التنازل عن أي تفصيل صغير بداخلها، أو أي مبدأ من مبادئها..

اتصل العم أبو سارة بمحمد بعد انقضاء صلاة الجمعة وأخبره أنه سيمر عليه ليشرب فنجان قهوة مستعجل ثم يعود للبيت وينتظرهم مساء..

تعجب محمد من طلبه ومن قدومه، أخبر والده وعلامات الذهول ظاهرة على وجهه فقال والده: عجبيب ألم تخبره بأننا سنزوره مساء !

قال محمد : بلى.. لكنه أراد أن يأتي إلى هنا قبل أن نزوره

فقال والده مهدئا إياه : خيرا خيرا بإذن الله..

قال محمد : إن شاء الله..

أتمنى أن لا يكون الأمر سيئا..

وضرب كفه بقلة حيلة على الكرسي ثم قال مستأذنا : سأقرأ سورة الكهف إلى أن يحضر العم، حضري الضيافة يا أمي..

وانصرف لغرفة الضيوف، تناول كتاب الذكر الحكيم وبدأ بتلاوتها، أنهاها ولم يأت أبو سارة بعد..

نفذ صبر محمد وخشي أن يكون الأمر يتعلق بسارة..

تردد قليلا ثم اتصل بها

- الو

-السلام عليكم، كيف حالك عزيزتي

- أهلا محمد وعليكم السلام ورحم الله وبركاته..

صمت محمد قليلا لا يدري ماذا يقول فقالت سارة :

- مابك !

محممد هل حدث مكروه لأحد !

فرد بسرعة نافيا ذلك :

- لا لا عزيزتي

فكر بالأمر : مادامت سارة تتحدث بصورة طبيعية إذا هي لا تعرف شيئا، لذا لن أشغلها بذلك..

فقال وهو يضع يده خلف رأسه : امم

أردت.. أن أسألك..

-عن..!

أكمل ما بك !!

ضحك محمد مزيحا جو التوتر الذي كان فقال :

- آسف آسف، كنت أفكر بأمر ما حين اتصلت وظل عقلي شاردا به..

دعك من ذلك

المهم

كيف حالك ؟

-يووه محمد !

-حسنا حسنا، فقط أردت أن أسمع صوتك وأخبرك أني سأحضر مساء اليوم..

-أهاا أهلا بك..

-ماذا تحبين أن أحضر لك معي ؟

-لا تحضر شيئا..

- بربك أخبريني، سأحضر هدية لك بكلتا الحالتين فدعيني أحضر لك ما تريدينه..

في هذه الأثناء، وصل العم أبو سارة، فدخل محمد للداخل وأشار لوالده ليخرج سريعا لاستقبال العم فقالت سارة :

-لا داعي لذلك، أحضر ما تريد..

- اممم حسنا حسنا، إذن أراك بعد المغرب إن شاء الله

- إن شاء الله

- بأمان الله

- مع السلامة

- مع السلامة

أغلق هاتفه وأسرع للمطبخ استعجل والدته وظل متوجها لغرفة الضيوف، وقف على عتبات الباب ليلتقط أنفاسه، نظر لوجهه بالمرآة وابتسم قليلا ثم أعاد ملامح وجهه لملامحها الطبيعية ثم تنحنح ودخل ملقيا السلام..

فرد عليه والد سارة : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

كيف حالك..

قبل بعضهما البعض وتصافحا، ثم قال له محمد : تفضل يا عم، أنرت..

رد عليه : نوركم سابق..

جلس الجميع ثم أخرج والد سارة ظرفا من جيبه ووضعه على الطاولة قائلا : هذه الخمسمئة دينار التي استأجرت بها الصالة لحفل خطوبتكم..

فقال العم أبو محمد : لا والله لا..

فقاطعه والد سارة قائلا : إنك رجل قديم وتعرف بالأصول، لا يرضيك أن أكون قليل أصل..

هدآ ثم أتبع : لقد كانت الأصول لدينا أن تقام حفلة الخطوبة في بيت أهل العروس، إنما العادات الدارجة أن يقام الحفل في صالات وقاعات مجهزة..

فتركتكما تتماشيان مع رغبتكما وأن تختارا الصالة التي تشاؤون ثم أتيت لأقوم بواجبي..

فقال محمد : لكن..

قاطعه قائلا : لتعتبرها أنت هدية من عمك..

ورسولنا كان يقبل الهدايا..

فابتسم له العم أبو محمد وقال : والله إنك لنعم الرجال، وإن نسبكم لنعم الأنساب شرف لنا أن نصاهركم والله..

قال العم أبو سارة : ووالله إنكم لنعم الأهل والعزوة..

ثم نهض العم أبو سارة مستأذنا، فقال محمد : القهوة أصبحت جاهزة

فضرب على كتفه قائلا : نشربها مساء في بيتنا بإذن الله، علي أن أعود الأولاد بانتظاري على الغداء.. السلام عليكم

أوصلاه للباب وقالا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، رافقتك السلامة..

أغلق والد محمد الباب وقال لمحمد هنيئا لك يا بني حقا..

والله إني لم أحب يوما رجلا كما أحببته، وكأنه قريب لي وأعز من إخوتي علي..

فقال محمد والتعجب يملؤه : والله صدقت..

صحيح أني أحببت سارة لما رأيتها، لكني أحببتها أضعافا لما رأيت والدها وأكثر وأكثر حين حادثته ثم عاشرته..

كان محمد وعائلته قد وصلوا البيت واستضافهم العم وزوجته بغرفة الضيوف والنقاش في أوجه بين العم أبو سارة وأبو محمد حول المقارنة بين العادات القديمة وكيف استحدثت تلك العادات

أما محمد فكان مشغولا بانتظار قدوم سارة، مستمعا فقط

قدمت له أم سارة طبق الحلوى فقال لها : خالتي.. أين سارة!

ضحكت وقالت : سأستعجلها لك..

فقال : سريعا بربك..

أكملت الضيافة ثم ذهبت واستعجلت سارة..

بعد دقائق دخلت سارة في حجابها وجلبابها، نظر محمد لها باستغراب شديد لكنه لم يعقب..

سلمت سارة عليهم ولم تسلم على محمد بيدها..

فمد محمد يده لها مصرا على إحراجها، رفعت يدها وكأن أثقالا مربوطة بها ومن ثم سلمت عليه ويدها مرتخية تماما

ويدها الأخرى تعدل بحجابها بخجل..

فشد على يدها بقوة حتى رفعت نظرها إليه وشبه ابتسامة على خدها لتقول له: أفلت يدي!

أفلتها وجلست بجوار والدها كأنه ليس موجودا فاغتاظ محمد وقال : أتسمح لنا بالجلوس هنا ياعم..

فضحك الجميع، وقال والد سارة : بالطبع بالطبع..

اذهبي بنيتي..

احمر وجه سارة، ووقفت ببطء ثم سارت لهناك بينما كان محمد قد جلس وأخرج الكرسي لتجلس عليه سارة..

وصلت سارة وجلست بهدوء..

فقال: كل هذا التأخير ثم تجلسين هناك وكأنني هواء هاا؟

حكت سارة ولم تعقب

هز رأسه وهو ينظر إليها وقال: فقدت قلبي وعقلي لم يتبق لي ما يؤخر ردود أفعالي فلا تختبري صبري بك بعد الآن..

ابتسمت سارة، ووضعت رأسها على غرتها

فقال محمد : وأمام خجلك هذا أفقد لساني أيضا..

فاحمر وجهها ووضعت أصابعها برفق على خديها وهي بالكاد تبتسم..

وبينما محمد يتأمل ارتباكها جاءت الخالة أم سارة مقاطعة إياهما وقالت : تفضلا العصير

حاولا أن تستغلا الوقت بالتعرف على بعضكما البعض، كثيرة هي الأمور التي تكبر الحب في أي علاقة بين اثنين..

بالآونة الأخيرة ومع التحرر باتت العلاقات تبدأ بالتعارف ثم حين يشعران بأنهما متفاهمين يأت الشاب ويتقدم لها بالزواج

وهذا مناف للشريعة..

وما وفقكما الله إلا لأنكما تحابيتما بالله بصدق ثم أتيتما لهذا المكان لتجلسا سويا وتتعرفا على بعضكما البعض فإن اتفقتما زاد الحب وتوجتماه بالزواج وإن لم يحدث فكنتما رجلان تحابا بالله وافترقا عليه، مخافة الله فوق كل شيء..

ومن ترك شيئا لله عوضه الله بخير منه..

أريدكما أن تتجاهلا هذه المشاعر التي تغرقكما الآن، وافسحوا لنفسكم المجال لتفهموا الطريقة التي يفكر بها الآخر، إنما جاءت المشروعية أو الحكمة من هذه الفترة أن تتوافق أفكاركما وتحاولان التعايش مع طريقة تفكير الآخر قدر الاستطاعة، فذلك يكسر ستين بالمئة من الحواجز والعقبات التي قد تواجهانها فيما بعد..

ابتسما لها فقالت منصرفة :

وفقكما الله عزيزاي..

فرد محمد : أجمعيين، سلمت يا خالة

أتبعت وهي تضحك : واخفضا أصواتكما كي لا ينزعج الكبار فينهون الحديث سريعا..

فضحكا، وانصرفت لمجلسها مع والدة محمد وزوجيهما..

قال محمد :

محقة والدتك فيما قالت..

كنت دوما أستنكر طريقة الحب المستحدثة..

كنت دائما أقول سأظل عازبا حتى يدب الله بقلبي عشقا فلا أدع الحرام يدنسه وأحفظه بروحي وأقدسه حتى أتزوجها..

فإن تزوجتها وبارك الله لي بها وكانت زوجة صالحة غازلتها ودللتها حتى نهرم على عكازين، وحينها أكتب رواية لأبنائي وأحفادي لأخبرهم أن الحب الذي يحدث بلا بوادر ولا تخطيط، ذاك الذي يسوقه الله لك ويرغمك على التمسك به والبقاء لأجله فقط هو ما يستحق أن تغير نفسك لأجله..

قالت سارة : أو ترى أن الله من يرغم شخصا على البقاء وآخرا على الرحيل..

فرد علبها : ليس تماما، إنما أؤمن جدا بأن الله يغرس في قلوبنا الرغبة بشيء ما لسبب ما، فإن زال السبب زالت الرغبة، وأسوأ ما قد يحدث للمرء

هو انعدام الرغبة، فبعد ذلك لا شيء يمكنه إبقاؤك ولا حتى أطنان من الذكريات..

كانت سارة تتكئ برأسها على يدها فوق الطاولة، فقالت : وجهة نظر..

غير محمد اتجاه الحديث فقال :

أخبريني عنك يا سارة..

أبعدت رأسها عن يدها وقالت :عما تريدني أن أخبرك ؟

فقال: امم عن كل شيء

ابتداء من اسمك، وعمرك، عائلتك، علاقاتك.. وكل شيء يخصك

لكن..

لو أحببت قبلي رجلا لا تذكري لي ذلك، طالما أنك الآن لا تحملين بقلبك حبا لأحد غيري..

فمهما تظاهرت بالتفهم أعلم أن قلبي سيتلوى قهرا..

رجاء..

قالت وهي تناظره بعمق : أو تظن ذلك !

قال : لا أدري ربما علاقة عابرة أو ما يسمى بصداقة أو إعجاب على الأقل لكني أغار فوق نطاق الغيرة الطبيعية فأي علاقة ذكورية ستتعب قلبي جدا..

ليس شكا بك والله، لكن لا أدري لم أقول لك ذلك..

وإني والله لما سمعت كلمة " أحبك " منك

خر قلبي لله ساجدا شاكرا فقد كانت أنفاسك حينها أنها عذراء لم تنطق لأحد قبل ذلك..

كانت سارة تنظر ليديها وقد رأى محمد ملامح الانزعاج على وجهها فأتبع : لا يمكنك أن تظني أني أشكك بطهرك فوالله لو أنك ما كنت كذلك لما استوطن قلبي عشقك واجتث كل برودي واستبدله بلهفة، إنما أردتك أن تترفقي بي حرصا، وجل من لا يخطئ..

فقد تكون لي علاقة مشابهة أيضا ولن أخبرك بها، إلا أني أشهد الله أني بلحظتي هذه لا حب يجتاحني سواك، وأن كل حرف عشق أقوله لك ينظمه قلبي لا لساني

وأنك تسكنين كل ذرة بجسدي وعقلي وقلبي..

وأني لم أقل أحبك لامرأة من قبلك..

ابتسمت سارة إثر كلماته وقالت له وابتسامة طفيفة على وجهها : لن أكرر ما قلت، لكني سأقول لك أمرا ليطمئن قلبك..

قلبي بطيء النبض جدا، وبليد جدا..

ألف رجل قبلك لم يحركوا ساكنا بداخلي، وأنت منهم

لكن الأحلام من فعلت..

الله فقط من هز قلبي حين أتيت فدق دقته الأولى

ويشهد الله أني لم أتحسس يوما موضع قلبي حتى لكدت أشك بوجوده..

فقال وعلى شفاهه ابتسامة امتنان:

أي دعوة صادقة تلك التي وصلت لله فلطف بي إذ جعل منك قدرا لي..

ثم أتبع وقد عدل جلسته :

أكملي سارة أخبريني عنك..

أدخلت شعرها إذ شعرت أنه قد بان طرفه من أسفل حجابها بيدها ورتبته فوق صدرها وهي تستجمع قولها، ثم شبكت يداها فوق الطاولة وقالت :

ممم، سارة هي تلك الفتاة النبيهة، المتغابية جدا

القوية والتي لا يمكن أن تدع حقها، لست طيبة أبدا، حذرة جدا، وعواطفي مركونة لا تظهر إلا حين أرى مشهدا أو أسمع قصة أحد، أتأثر سريعا بالآخرين..

لا أجيد الثرثرة، ولا أحبذ الحديث مع الغرباء، لكنني أكثر بكثيير من مجنونة مع إخوتي وصديقاتي التي أحب..

جريئة جدا لا أخاف من أي شيء سوى الحرام، ولا أحسب حسابا لأي شخص، أؤمن جدا بأن الله لا يضعني أمام مشكلة وقد خلق داخلي قدرة على التغلب عليها، وهذا ما جعل مني فتاة لم تذق يوما طعم الفشل، طبعا كله من فضل ربي..

صمتت قليلا ثم قالت :

و...

سيئة جدا!، للحد الذي يجعلني لا أغفر أبدا لمن يكذب علي، رغم أني أكثر الناس كذبا..

ولا أسامح من يستهين بي، بالرغم من أني لا أحسب حسابا لأحد..

ولئيمة جدا، فإن فارقت أحدا هانت علي العشرة والذكريات ولا تحدث دموعه ولا رجاؤه شيئا..

نفثت كل الهواء من صدرها عل كلمة واحدة تسعفها لكن ما تخفيه داخلها أكثر تعقيدا ووحشة، رفعت أكتافها وعقدت فاهها للأسفل ثم أرختهم ونظرت إليه وقالت: ببساطة أنا فتاة لا أجيد الحب ولا أستحقه..

وكم أخشى أن تتورط معي يا محمد..

كان محمد يراقب كل حركة ويسمع كل نبضة ويشعر بكل رجفة تحدث لها أثناء حديثها فقال : أو تفعلين ذلك عن قناعة !

قالت : بالتأكيد.. لا يمكن أن أفعل شيئا بلا تفكير..

فقال : وكيف تبررين كذبك بينما لا تغفرين لمن يكذب

صمتت قليلا ونظرها سارح بشرود وتزم فاهها كأنها تحاول إجبار عقلها على نظم سبب مقنع ثم نظرت إليه وقالت :

لأني أكذب مجبرة على ذلك..

عقد حاجبيه وأومأ بعدم استيعاب الفكرة ثم قال : ومالذي قد يجبرك على شيء كهذا !

فقالت :

امم سأحاول شرح الأمر لك، وحاول أن تستوعبه إن تمكنت من ذلك.

أنا لا أرى شيئا لافتا ومميزا، ولا أطيق الأحاديث الطويلة، ولا أحب أن يلتصق أحد بي، ولا أن أسمع كلام الحب والشوق من أي مخلوق كان، وأفقد الرغبة برؤية العالم كله بعد ساعتين من التجمع كأقصى حد..

لا أحب أن تكون لي صديقة تخبرني بكل شيء، ولا يمكنني أن أخبر إحداهن عن أي شيء يحدث معي إلا ما لايهم..

كل هذا يجعل مني شخصا سيئا جداا لا يحتمل وجوده بين البشر، ولكني أشعر أني حين أكذب وأجامل أحدا أفعل شيئا حسنا أؤجر عليه، كأن أبقى مع صديقة تقول لي كل لحظة أنها تحبني، وأخرى تريد أن تظل ملتصقة بي طوال الجامعة..

أن أقول لتلك أنها باتت نحيلة، وأخرى أنها اليوم فاتنة بطريقة مذهلة، وآخر بأنه شاب خلوق وإن كنت أراه أسوأ الخلق ليحسن من خلقه، وذاك بأنك شاب عقلك كبير وناضج ومثقف، ليصمت..

وهكذا..

ضحك محمد وقال : مجنووووووونة !

فضحكت سارة وقالت : أقسم أني أجاهد بكل لحظة، كي لا أجرح أو أحرج أحدا..

وأتقبل البعض من الناس ذاك الصنف الذي يتحدث قليلا، وأراهم بفترات متقطعة، وأكثر الناس قربا لقلبي من يخبروني حينما ألقاهم أنهم يدعون الله لي..

فحك رأسه وهو يصر على أسنانه : امم هههه وأنا !

اعتدل بجلسته وقال : أخبريني بم كذبت علي ! من الآن

فضحكت وقالت : بكلللل شيء حتى بأني أح..ب

ضحك سريعاا : هههههه أكمليها أكمليها

احمر وجهها سريعا ولم تتمكن من كتم ضحكتها فضربت رأسها بيدها ثم تحاول أن توقف فمها عن الضحك لكنها كلما استجمعت قواها تسيبت منها ضحكة أخرى

وصلت أصوات ضحكتهم للجالسين فنظرت لهم الخالة أم سارة وبحلقت بهما وهي تنبههم لصوتهم

فقالت سارة : احمم اختصر الكلام الآن، نضحك كالأولاد الصغار

فابتسم وقال : حااضر.. سأصمت لكن قوليها..

نظرت إليه وحدقتا عينيها قد اتسعت حتى لكادت باقي ملامحها أن تختفي وقالت بلا إدراك : هششش اصمت

ضحك ضحكة استنكار : أو أقترف ذنبا إن طلبتها !

أنا زوجك يا مجنونة..

نظرت إليه بنصف نظرة وابتسامة استهزاء وقالت : وإن..

قاطعهما صوت العم والد سارة : هاا يا أستاذ

ألم تملا من الحديث..

أظن ذلك كافيا..

فنظر محمد له وضحك : أتطردنا يا عم..

ضحك الجميع فرد عليه : بل أدعوكما لتشاركانا الحديث..

هيا تعالا إلى هنا..

يكفيكم اليوم ستتحدثان كثيرا لا تقلقا..

فقال محمد : حسنا، فقط أمهلنا دقيقتين سنكمل ما نتحدث به ونأت وحدنا

ضحك الجميع على محمد، فقال العم مؤكدا : بدأ العد.. دقيقتين لا غير

نظر محمد لسارة وقال باستياء: كم تبقى لنا !

ضحكت سارة وقالت : تبقى لماذا ؟

فقال : لأن أجالسك بلا انقطاع، حتى تمليني وتكذبين، ثم لشدة مللك مني تصدقينني القول وتقولين لي : أغرب عن وجهي لا أريد رؤيتك..

ولا أفعل..

ضحكت سارة بخجل، فقال : أدام الله بسمة لو مت وصعدت روحي للسماء ورأتها لعادت إلي هرعت خشية أن تفوتها

والله لا أحب على قلبي من بسمتك، سبحان من خلق كل إعجاز الكون فيك..

نظر للساعة فقال متذاكيا : بقيت دقيقة..

سأقول لك شيئا مهما جدا جداا..

نظرت سارة إليه بحب وابتسامة خجل منحوتة على فاهها، وأومأت له بأنها تسمعه

فقال ببطء : أحببك

وصمت

فتلعثمت هي ببطء كأنه عرض بطيء للمشهد..

ويلها أنه قالها، وويلها أنه ينظر إليها بتمعن، وويلها أن لا وقت للخجل، وويلها أن والدها والجالسون ينظرون إليها

دون ابتسامة احمر وجهها هذه المرة واضطرب نبضها اضطراب من يعاني هبوط ضغط في آخر لحظة قبل أن يغشى عليه

تحرك يديها ببطء وبلا وعي على حجابها

ومحمد غاااارق بتأملها في أحب اللحظات على قلبه

فلما انتهت الدقيقة، التي كانت كل ثانية بها تعدل ساعة

من الوقت الذي مضى

قال محمد : فاتنة بطريقة لا تغتفر، حين تخجلين..

التقت عينها بعينه، فتبخرت

وابتسم لها محمد، ثم وقف ليذهب إليهم بينما انسحبت سارة من المجلس مدعية أنها تريد القيام بشيء ثم ستعود مجددا

بينما بالحقيقة أنها دخلت لغرفتها وأوصدت باب غرفتها عليها فأمطرت عيناها مطرا غزيرا بدد سحاب الخجل في قلبها حتى استعادت شيئا من قواها التي تبخرت وهي بحضرته..

أما محمد فجلس بصحبتهم حتى أنهوا النقاش وسلم عليها حين خرج بيده ولم يقل حرفا إنما قال ما هو أعظم من كل الكلام بعينه لها وعلى محياه شبه ابتسامة وأطناان حب ثم قال : استودعتك الرحمن..

أخفضت رأسها وأخفضت معه جناح قلبها وردت مودعة إياه : بأمان الله..

***

_28_

"ما أجملك يا سارة..

إذ تلتهمين عروق قلبي بنهم، وتدغدغين الصدر بجمال حرفك وقولك، وملامح وجهك.. مطمئنة جدا أنت.

حين أراك أستحضر شعور المؤمنين إذ يرون الجنة ويعرفون أنه الحق من ربهم إذ قال وبشر الصابرين..

إني أمامك لا أشعر بأي شيء، عبثا أحاول ترتيب الحديث وتنميقه، عبثا أحاول لملمة شتات نبضي، وكل محاولاتي بالصمود أمام حسنك تتعثر وتفشل غير آبهة بمن حولي

إني أفقد كل عدتي وعتادي حين تنظرين إلي، أتمنى لو بإمكاني التلاشي في تلك اللحظة فلا تريني، إذ أشعر أني كالأبله تماما أقف مسلما مستسلما لك..

إني أخجل أن أقول أني أحبك هكذا

أن أقول لك أنك قلبي ونبضه، عمري، وحياتي، ونور عيني

أخجل أن أقول لك شيئا أمام عظمة الشعور

وكم أخشى أن أقول شيئا كاذبا حفظته عمن قبلي وأكرره على مسامعك فترين أن حبي لك حبا عاديا..

لكني سأقول لك إن الله قد خلق لك في هذا القلب نبضة تسري في العروق، حين بدأت بالأحلام استنكرتها جدا وحاولت الهرب جاهدا منها، وحين أرسل دماغي أمر لكريات دمي البيضاء وشنت الحرب عليها محاولة منع هذا الشيء الغريب من التجذر سريعا والانتشار خدرها سحرك فباتت تقاوم كل شيء عداه

إنك تستوطنين جسدا وعقلا كاد أن يقتله البرود والانطفاء، فأتيت كالطفلة التي لا تعي شيئا وخربت كل أشيائي التي كانت..

إنني الآن أعيش مرحلة ما بعد العشق، ما بعد الوله والجنون..

وقد قلت ما بعد ذلك لأن ما بعد الشيء أعظم، أطول أمدا، وأقل إدراكا وحصرا..

إني أحبك لما بعد الحياة..

أي أني أحبك للآخرة في دعائي وفي سجودي وفي قيامي

وسأفعل كل شيء لتظل هذه النبضة التي بيسارك لي وأظل زوجك فإن وصلنا الجنة سويا طلبت من الله أن يعوضني النعيم كله فيك وحدك، فلا حورية بالسماء ولا أجمل فاتنة فوق هذه البسيطة تتمكن مني سواك وحدك..

زوجك محمد "

كانت هذه كلمات رسالة محمد التي أرفقها في صندوق كرتوني مع دولاب صغير لإوزتي سلام، إذ تدور فتتغير الألوان وتتطاير قصاصات الورق كأنها كرات ثلج صغيرة تحيطهما مع موسيقى هادئة..

كانت هذه الهدية الرمزية تعني الكثير لمحمد فقد كان لديه في صغره هدية مشابهة من والدته ظلت لديه لمدة ست سنين وهو ينام عليها ولما كسرت تضايق جدا ورفض أن يقتني أخرى، حتى اللحظة التي قرر بها أن يقتني شيئا جميلا لسارة فكانت حينها أولى خياراته..

اقتنى اثنتان منها.. واحدة له وأخرى لسارة..

وفي عقله الطفولي يشعر أنها كبلورة الساحرة التي كانت ترى فلة حيثما ذهبت، وكأنه يريد شيئا ملموسا يرى فيه صورة سارة أو انعكاسها في ذهنه..

عاد محمد للبيت وكان قد أخفى الصندوق أسفل الطاولة التي كانا يجلسا عليها ولم يقدمها لسارة، لتكون له ذريعة ويحادثها ليلا ليخبرها أنه قد نسي أن يعطيها إياها، فيكسب وقتا إضافيا وحديثا آخر معها..

ولما وصل البيت بعد ساعتين، تناول عشاءه مع العائلة سريعا وانسحب معتذرا بأنه سيخرج للركض قليلا ليشعر بالراحة قليلا..

خرج من بيته بعد أن صور الدولاب الذي قد وضعه في غرفته، وهو يهرول سريعا، يخدع نفسه بأنه يسعى لطرد سارة من مخيلته، وإنما كان يهرب نفسه لها..

أشباه خيالات تمر أمامه

ابتداء من تلك اللحظات الواهية التي كان يشعر باضطراب حين يحادثها ويخفي ذلك عنها، الأحلام، ثم امتناعها عن حديثه وحظره، رؤيته الأولى لها ولعثمة النبض العجيبة لفتاة لا يعرفها ولم يرها يوما، حين أزاح وجهه لكن قلبه التفت..

الجلسة الأولى، نظراتها، صوتها، حديثها، المطر، والنوم بالشقة السفلية، أنفاسها، ومشيه الطويل تحت المطر وشرفتها..

أعمامها والرفض وانقطاع الأمل، ثم رحمة الله كلها

بالقبول، والفحص الطبي وكتب الكتاب، وأخيرا الخطبة

ثم اليوم

ببطء وسعادة غامرة يركض ويركض بسرعة أكبر وفي أذنيه أغنية تلو الأخرى حتى وصل لأغنية تامر حسني باللهجة المصرية " لما بتكون بعيد "

فأخذ يغني معها بصوت مسموع

" لما بتكون بعيد بحضر كلام أقولو..

ولما بتكون قريب بتنسيني اليوم بطولو..

ولا بعرف أتكلم، يدوب كتير أسلم

واتكلم بأي حاجة بعيدة..

بعييدة

عن كل الي انا عايز أقولو.. "

ثم جلس على أحد المقاعد وأعاد رأسه للوراء حتى صار يرى السماء، مع ألحان الأغنية..

وجد نفسه يتصل بها بلا شعور..

كانت سارة مستلقية على سريرها مدعية النوم، بينما تختبئ تحت فراشها تنظر لصور محمد معها بالخطبة، وترتسم الابتسامة سريعا على محياها كلما تذكرت اللحظة التي أخذت بها الصورة..

رن هاتفها، ورن قلبها معه..

ضغطت على الزر الجانبي ليكتم صوت الرنة

ثم رفعت الغطاء عنها ونظرت لأختها فوجدتها غارقة بالنوم..

سحبت رمز الاتصال الأخضر وردت عليه

كانت تعلم أنه هو، بالرغم من أنها لهذه اللحظة لم تخزن اسمه بالحافظة، إنما كانت تحفظه غيبا..

قالت بصوت منخفض :

الو..

السلام عليكم

فقال : وعليك السلام عزيزتي، كيف حالك ؟

فقالت : امم بخير، والحمد لله

قال : أما زلت مستيقظة !

شعرت سارة بالخجل وكأنه عرف أنها كانت تنظر إليه، فقالت مدافعة عن نفسها : كلا لقد كنت.. أحاول النوم

فقال بحدق : ولم الارتباك !

لن أسألك بمن كنت تفكرين، لا تقلقي..

لأني أعلم..

فقالت بمكابرة : بالطبع ليس بك..

فقال : يا سلام..

حسنا سأفتعل تصديقك، أما أنا فلن أنكر، لقد كنت أفكر بك

ليس قبل أن أحادثك فقط..

إنما منذ مدة طوييلة، لقد أصبحت الخلفية والأساس في التفكير، فإن فكرت بأمر لحظي آخر أفعله وأعود لك..

فالتزمت الصمت..

ثم قالت بتلبك : سلمت

فرد باقتضاب : سلمت ! هذا ما قدرك الله عليه..

اه منك ستصيبيني بالجنون لا محال..

ضحكت سارة بسرها ولم تصدر صوتا فأتبع :

المهم كنت سأقول لك شيئا..

لقد نسيت هديتك بالبيت

فقالت : امم لا بأس..

فرد : أتودين رؤيتها !

قالت : أها

فقال سريعا : افتح الماسنجر، سأرسلها لك بالحال..

صمتت للحظات حتى فتحته فأرسل لها فيديو قصير لدولابه، وانبهرت جدا

بكم اللطف بذوقه إذ اختارها وردية اللون ورقيقة جدا..

فقالت بانفعال وهو معها على الهاتف : اووه ما أجملها..

فرد بانفعال : حقا !

هل أعجبتك ؟

فقالت بشغف : نعم، جددا

ثم أتبعت وقد تغيرت نبرتها لاستياء : لكن ما الفائدة منها وهي في بيتك الآن..

صمتت لبرهة ثم اتبعت : أحضرها إلي..

رفع حاجبيه وقال : الآن !

قالت بشقاوة : نعم، الآن أريدها

فقال بتحد : سآتي !

فردت بتحد أكبر : لتفعل..

فقال : حسنا سآتي الآن ساعتين وسأكون على باب بيتك..

لكن هل سأراك !

فقالت وهي تفكر بجنونه وأن ذلك ليس غريبا عليه : امم فقط سآخذه منك وأغلق الباب..

فقال : موافق

على شرط، أن تحادثيني حتى يؤذن الفجر.. فأعود لبيتي

سأظل تحت شرفتك

فقالت مشككة به : موافقة

قال منهيا الحديث : سأتصل بك حالما أصل.

تلعثمت سارة لما قال ذلك بثقة، وفصل الخط بعدها جلست على النافذة وهي تمسك هاتفها بكلتا يديها وتفكر : أيعقل أن يفعلها بحق ويأتي إلي فقط ليعطيني الهدية !

لا لا، لا يعقل أن يقطع كل هذه المسافة بوقت كهذا !

امم

سأتصل به لأتأكد، لابد أنه سيتحجج بأي شيء..

حاولت الاتصال لكن الاتصال قطع دون أن يرن هاتفه، قلقت قليلا وبدأت تشعر أنه قد يأتي بحق..

وقفت أمام المرآة والضوء خافت، وشعرت برغبة مفاجئة بالضحك..

ضحكت واقتربت من المرآة فجلست على الطاولة الملتصقة بها فأصبحت أمام المرآة مباشرة..

تربعت ووضعت هاتفها على الرفوف التي تجاورها وهي شاردة الذهن، ثم نظرت لنفسها بالمرآة وابتسمت، أمسكت خصلات شعرها الكستنائي المتدلية على أكتافها وأخذت تسرحهن ببطء وتغني بصوت أشبه بالهمس :

قديش كان في ناس عالمفرق تنطر ناس

وتشتي الدني ويحملوا شمسية، وأنا بإيام الصحو ما حدا نطرني

أنا لحبيبي وحبيبي إلي

يا عصفورة بيضا لبقى تسألي، لا يعتب حدا ولا يزعل حدا أنا لحبيبي وحبيبي إلي

حبيبي ندهني وقلي الشتي راح، رجعت اليمامة وزهر التفاح..

ثم سكتت وبدأت تقول بسرها :

يووووه لا أصدق..

ماذا يحدث لي !

لقد بت أفكر به كثيرا، أقبله وأنتظر حديثه ومجيئه، خيالي لا يرسم سواه، وأحلامي !

لقد..

لقد كنت أحلم به ليلا، لكن الأحلام باتت متصلة ليلا مع نهار ولم أعد أميز شيئا

استدارت وأنزلت قدميها على الأرض بينما ظلت جالسة على ذات الطاولة..

و تتساءل :

هل سيحضر حقا!

مجنووووون

وبت أراني مجنونة مثله..

كيف أمنع نفسي عنه وقد تغلغل داخلي ببساطته وحبه العظيم ورقيه، والأهم من كل ذلك حركاته العفوية وحرصه!

اووه قلبي قلبي قلبي

لا أصدق أني

أنا

أشعر بكل هذه المشاعر..

التفتت لهاتفها الذي أخذت شاشته تضيء برقم هاتفه

نظرت للشاشة فشعرت برغبة أن تمنحه اسما لم تمنحه لأحد من قبله، بلعت ريقها والأصح أنها بلعت مشاعرها التي اجتاحتها فجأة وردت :

- الو !

- ها سارة..

أين أنت ؟

-امم بغرفتي !

- حسنا، نصف ساعة وسأكون على بابك..

-أأ ه

تممزح !

-كيف أمزح !

أوتظنين أن هذا القابع بصدري سيهدأ وقد علم أنك تريدين شيئا أقدر عليه !

- محمد...!

- قلب محمد !

- لقد.. كنت أأمزح..

- ولتعلمي أن الخيال الذي ترسمينه بعقلك لو علمته أقسسم أني سأبذل قصارى وسعي لأجعله واقعا..

والله يا سارة لن تشعري بحبي لك، مهما قلت..

فكفي عن الاستغراب مما أفعل..

أدمعت عين سارة ثم قالت :

- أبقاك الله.. لي

فابتسم وقال :

- يااااااه

والله إني لأخشى أن أذكرك بيني وبين نفسي ولا أذكر اسم الله فأحسدني عليك..

تنفست سارة بأنفاس كبر البحر أبردت قلب محمد فأغمض عينيه وقال لها : أحبك..

حاولي أن تفهمي هذا يا سارة..افهمي..

ثم حاول ترتيب صوته وقال بمرح :

- المهمم اسمعي، أيمكنني أن أطلب شيئا منك !

فقالت بحب :

- تفضل..

قال :

- أريدك أن تكتبي لي رسالة ورقية..

وتعطيني إياها حين آتيك !

فردت بتعجب :

- رسالة !

فقال:

-أريد رسالة بخط يدك، تعطرينها وأقرأها مرة واثنتين وألفا ثم أحتفظ بها بمحفظتي..

بربك..

- لكن..

ماذا سأكتب !

- اكتبي أي شيء، حتى ولو مجرد أغنية

ولو أني أتمنى أن يكون كلاما نابعا من قلبك..

- امم سأحاول

- حقا !

هيا هيا إذن سأتركك لتكتبينها حتى أصل لقد أصبحت عند الإشارات..

أرااك

- مع السلامة..

***

_29_

غرق محمد بسعادة غامرة ونبضات لم يعهد له أن شعر بها، صحيح أنه يعلم بحب سارة له، لكنها المرة الأولى التي تشعره بذلك..

لقد كانت نبرة الحب جلية جدا هذه المرة..

أما سارة فجلست على سريرها، وفتحت خزانتها المجاورة لتتناول إحدى أوراقها الجامعية..

فتذكرت أنها تخبئ مجموعة من الأوراق الرملية في صندوقها المركون أعلى خزانتها، تناولت إحداهم وجلست على مكتبها بعد أن أشعلت الضوء بجوارها، تناولت قلم الحبر السائل الخاص بها وأخذت تكتب :

" ممتنة أنا..

لله الذي ساق أقدارنا لنجتمع سويا اليوم

بعد أحلام كانت أبعد من نجوم السماء، ثم بواقع يجعل أرواحنا تعيش فوق السحاب..

لا أنكر صمتي، وانسحابي، ومكابرتي حين أراك

ولا أنكر أني أسهب بدعائي وابتهالاتي لأصمد أمام عظيم عشقك الذي يفوق الأحلام شعورا واجتياحا لي..

لكني أريدك أن تدرك حجم غرابة الشعور علي

وأن تفهم أنني لست كأي امرأة خلقت، لقد جفت أرض قلبي منذ عصور، وقد جاءت سحابتك تنزل غيث العشق عليها ففاضت بي المشاعر دون أن أدرك..

طلبت مني أن أقول لك " أحبك " !

عجيب أمرك..

أو مازلت تنتظر مني كلمة بهذا السخف !

ألا تسمعها حين ابتسم لك، حين أجالسك، حين أرد عليك وأجيبك..

ألم تسمعها حين كنت أراسلك، حين قبلت مهاتفتك، وحين أسمعتك صوتي..

صحيح أن الحب درجات، وأني الآن معك وصلت لذروة العشق التي لا أظن أنه مازال فوق الأرض درجات عشق بعدها، لكني لا أنكر ذاك الحب أيضا..

لقد جاء بك الله لي، منذ البداية وأنا أراوغ قلبي وأراوغك

لكني أحبك يا محمد لن أقول بحجم الدنيا ومن فيها، بل بقدر هذا القلب فقط..

هذا القلب الذي أملك

أحبك بقدر ما أحب.."

قاطعها اتصال محمد

ردت عليه فقال لها أنه قد وصل لتفتح له الباب، وطلبت منه أن ينتظر قليلا..

وقفت أمام الورقة وأخذت تنظر إليها، فمزقت الورقة ورمتها، إذ شعرت بسخف تلك الكلمات وكتبت برسالة أخرى

" بأحلامي كنت قدرا جميلا، ولما أصبحت قدري تجاوز حضورك كل الأحلام جمالا

وأنا أيضا....

سارة "

ثم عطرتها وأمسكتها بيدها بعد أن ارتدت طقم الصلاة وتوجهت لباب البيت الخلفي فتحته، فوجدت محمدا واقفا هناك مدت له الرسالة فأخذها وقد وصلته رائحة عطرها

فقال :

يااااه.. وتظاهر بأنه قد أغشى عليه

كانت سارة متوترة جدا فقالت له : أين الهدية !

وهي تبحث بيديه عنها إذ لم يكن يحمل أي شيء..

فنظر إليها بشقاوة وقال : نسيتها !

فنظرت إليه بتعجب : تمزح !

قال باستفزاز : أقسم لم أحضر معي شيئا، لقد جئت هكذا..

استاءت سارة وانزعجت لكنها تظاهرت بأن الأمر ليس مهما، فقالت وقد ارتسمت ابتسامة كاذبة على وجهها : لا بأس..

علي أن أعود، حين أدخل غرفتي سأتصل عليك

قالتها وهي تتسحب بعينيها وكأنها تود أن تسأله : إذن ما الذي جاء بك !

ولما كادت أن تغلق الباب ناداها هامسا :

سارة

سارة

التفتت إليه وقالت : ها محمد !

قال وقد اقترب منها قليلا لتسمعه : اضحكي..

فادعت ملامحها ذلك ثم قالت وهي تنظر إليه : علي أن أذهب..

فقال مع السلامة..

دخلت سارة غرفتها وقد كانت تشعر بانزعاج شدييييد

لم تشأ أن تتصل به سريعا، جلست على الطاولة التي تجاور النافذة ونظرت منها ناحه فوجدته يقرأ بالرسالة، ثم شمها وأطال ذلك

وبعد ذلك نظر للنافذة، لكنه لم يتمكن من رؤيتها لأن الضوء كان منطفئا..

فاتصلت سارة عليه

فقال حالما فتح الخط :

- كل حرف منك يعدل ألف قصيدة من غيرك..

فقالت : أ قرأتها !

فرد :

- بالتأكيد، ورائحة العطر

حكاية أخرى..

قالت :

- سلمت

فقال :

- قومي معي

- إلى أين !

- تعالي هات يدك..

- كيف سأعطيك اياها ؟

- هههه مجنونة بالخيال، لكني أنا حقا ممسك بيدك هيا تعالي معي

- هاا

- خذيني لغرفة الضيوف

- اها

- قوومي

- محمد لن أقوم كالمجنونة الآن

- سارة بربك، تعالي

- حسنا هاا لقد وقفت سأذهب لغرفة الضيوف، لن أتحدث حتى أصل..

- حسنا

..

- وصلت !

- ابقي الضوء مغلقا..

- اها

- تعالي نحو الطاولة..

- أي !

- التي كنا جالسين عليها..

- اها

- أنزلي يدك..

- ما هذا !!

- أمسكي الصندوق واذهبي لغرفتك سريعا، سأنتظر..

- حسنا !!

ركضت سارة نحو غرفتها، أشعلت ضوء الغرفة، فوجدت صندوقا أحمر اللون مزخرفا بزهور، فتحته فإذا بالبلورة الوردية ورسالة تفوح منها رائحة عطر زكية..

تعجبت سارة وقالت منبهرة :

- اووووه !

محممد !!!

- يا قلبه..

- مجنووووون أنت !..

فضحك محمد

فقالت مقاطعة إياه باستنكار شديد :

- لكن..

لماذا أتييت إذن، وقطعت كل هذه المسافة !

فقال :

- كي لا تشككي بجنوني بك..

فضحكت والتعجب يملؤها وقالت بانفعال :

حقاااا

لاا أدري ماذا أقول لك !

فرد بحدق :

- تلك الكلمة التي حرمتني منها حتى على الورقة واستعضتها بأربع نقاط..

سكتت قليلا، محاولة كبتها، ثم تنهدت وقالت :

أحببتك

طال الصمت بعد تلك الخانات التي ملئت وكأنها قد ألجمت لسانيهما وبخرت قلبيهما وبعثرت الحروف من على شفتيهما حتى قال محمد بكل امتنان :

معك عرفت أن هذه الحروف التي لطالما قدستها ورفعتها على أن تقال لأحد وجئت أقولها إليك والله بكل صدق، ليست حروفا تشكل كلمة، إنما مشاعر تخلق نبض قلب آخر لصاحبه..

ابتسمت سارة لكنها لم تقل شيئا، وقد شعرت أن الحديث سيستوطنه هذا المسار، كانت مشكلة سارة بالملل والاكتفاء وقلة التفاعل والانفعال، فقد شعرت أنها قد قالت الكثير بهذه التنهيدة والرسالة، الكثير بما يجعل محمد مطمئنا بأنها تحبه جدا، وذلك ما كانت تريده أن يعلمه فقط، فإنها تؤمن بأن الحب والعلاقات تفسدها الكلمات أكثر من أي شيء، فلا فائدة من كل قصائد العشق إنها مجرد تخديرات موضعية، تجعل صاحبها أكثر ضعفا وأقل قدرة على العطاء، فإن تمكن المرء أن يثبت حبه بالكلام، فلن تتحرك يداه وعقله لذلك..

قال محمد مغيرا الموضوع راغبا بسماع صوتها ومشاركتها إياه بالحديث :

-امم

سارة، أيمكنني أن أسألك !

فقالت :

- بالتأكيد

قال:

- أعذريني على السؤال، لكن يهمني أن أعرف..

أنا لست منزعجا من حجابك ولباسك هذا وقد صرت حلالي، لكني أردت أن أعلم إن كنت مقتنعة بذلك أم أن عمي قد أجبرك على ذلك؟

قالت سارة :

- اسمعني يا محمد..

فيم بعد ستدرك أنني أقتنع بما يقوله والدي ولو لم يشرح لي، فقد بنيت داخل قرارة نفسي قناعات عظيمة بأن والدي رجل حكيم جدااا، ولا يفكر بالأمر بحد ذاته بقدر ما يفكر بأعماق الموضوع وصورته من كل الجهات وما سيحدث فيما بعد..

ووالدي يدرك تماما أن رأيه مقدس لدي، صحيح أن الكمال لله والعلم لله وحده، لكني أراه من أهل الدين والعلم الذين يعتد برأيهم وقولهم..

فلو كان ذلك رأي والدي فإني لن أناقش وسأفعل ذلك برضى قلب تام، إنما ما حدث أن والدي ناقشني بالأمر واستشارني، إذ قال أن هذا العقد ليس إلا تصريح للحديث المشروع بيننا ولا داع لأن يكون للجسد فيما بيننا مكان، ليكون تركيزنا بهذه الفترة منصبا على الفهم العميق لبعضنا البعض..

فقال محمد :

- يقال أن كل فتاة بأبيها معجبة، لكني والله لإن كنت والدك لأعجبت بك، إنك ناضجة جدا، وهذا سيوفر علينا الكثير..

فقالت :

- لقد اعتدت على مصاحبة والدي ومجالسته منذ أن بدأت أعي ما يقال، ووالدي رجل حكيم جدا كما ترى، وزاهد جدا، كل ما منحني إياه جعلني أعيش حياتي بمعزل عمن حولي فكريا، فأمضيت سنيني بلا أن أتأثر بأفكار أحد..

فقال :

- هذا واضح جدااا..

قالت :

- أخبرتك عني كثيرا، فماذا عنك !

كانت سارة تنظر لمحمد من الأعلى بينما هو جالس على سور مرتفع بعض الشيء ويحادثها..

قال :

- في عالم الرجال ما يختلف كثيرا عن عالمكم، فنحن دائما ما نتعرض لمواقف إثبات الذات، وتلقائيا نتجه لأن نعرض قدراتنا، وإن لم تتمكن من إثبات نفسك قد تتحول بلحظة ما إلى أضحوكة بينهم..

أنا شخص هادئ جدا، ومهذب جدا، لا يمكنني أن أسيء لأحد، ولا يمكنني أن أجيب من يكبرني عمرا..

لكني ذو مبادئ ثابتة جدا، ليس من السهل بل إنه لمن المستحيل أن أحيد عن مبدأ اعتنقته..

شغوف جدا بالعلم، ومطمئن السريرة هادئ وخجول جدا حد الملل لمن لا يعرفني، محبوب جدااا من قبل الكبار بالعمر، ومرضي الوالدين، ولا شأن لي بالجنس الآخر أبدا..

تتلعثم كل حروفي لو حادثتني أنثى، ولا أحب الخوض بما يخصهم، أغض بصري عن أي أنثى أراها في طريقي، أو حتى من تتعمد حديثي من الأقارب أو ما شابه..

ليس خجلا بقدر ما هو حياء، لا أنكر أني أحيانا ولم يتعد الحديث قرارة نفسي أن أسأل لما أقاوم نفسي لهذا الحد، لكني وبسبب ما تعلمته واعتنقته بفهم عميق لديني، فلا يمكنني أن أتيح لنفسي المجال حتى النظر لامرأة ما دامت ليست من محارمي ومن حلل الله لي..

وما رأيك انت بالاختلاط وحدوده ؟

فقالت :

- امم

بالنسبة لي كوني أشارك بالكثير من الأندية والأنشطة الجامعية المختلطة فإني كثيرا ما أختلط بالجنس الآخر، ولا أشعر أبدا بالخجل أو الحياء حين أحادثهم، ولم يحدث أبدااا أن تجاوز أحدهم معي حدود الكلام الجميع يتحدثون معي ضمن ضوابط أفرضها أنا..

فقال:

- ألا تتعرضين لمواقف سيئة أو محرجة منهم، معاكسات أو مضايقات !

فردت

- لدي قناعة بأن الأنثى يمكنها فرض احترامها جبرا على من يحادثها ولو كان أجنبيا، صحيح أن ثمة رجال غير سويين ولا يحترمون أنفسهم، لكن بطبيعة الحال أنا لا أخوض مع أحد منهم والحديث يكون رمزيا جدا..

وبالحقيقة

إني لا أحادثهم ليس خجلا أو حياء، فإني والله لا أشعر بأي شيء لو استوقفني أحدهم أو قال لي شيئا، لكني لحد ما أشعر بالترفع و بغض لهذا الجنس، فوالله لو لم تسبق حضورك الأحلام وآلآف من المشاعر العميقة جددا لما قبلتك زوجا لي ولو كنت سيد قومك وأخيرهم..

ليس لأنك سيئ.. بل لأني لا أشعر بأي رغبة بوجود شخص في حياتي..

إن داخلي ممتلئ تماما بحب الله وحده، ولست أحتاج لحبيب أو شخص أكتمل به، لذلك كثيرا ما أشعر أني قد أظلمك.. إنك تستحق فتاة مملؤة بالحياة والشغف، مقبلة على الحياة بكل ما فيها..

قفز محمد عن السور للأرض وقال وهو يمشي بتثاقل :

- ألا تشعرين بحاجة للاهتمام..

بأن تستيقظي صباحا على صوت شخص يحبك، ويشاركك بكل لحظة تعيشينها، شخص يبقى ولا يتغير، يظل لك وحدك يهتم بك يسأل عنك، لو شعرت برغبة بالبكاء والتعري من كل قواك لجأت إليه دون أن تشعري بالخجل أو تحسبي حساب لذلك !

أخذت شهيقا وزفيرا ببطء ثم قالت :

- أرى بالحب ضعفا لا أحتمله..

لا يمكنني أن أشارك كل شيء مع أحد، لا يمكنني أن أشعر أني قوية لوجود أحد، ولا أشعر برغبة بتجربة شيء مماثل، أحب أن أكون قوية بذاتي وأن أتمكن من فعل ما أريد دون خوف من خسارة شخص ما..

- ومن قال أن الحب ضعف !

اسمعيني..

لقد عشت شعور اللاشيء كثيرا، انطفأت كثيرا وانطويت على نفسي في أحد زوايا هرم الحياة حتى لكدت أطبق الضلع على الضلع، بلا أي رغبة بوجود أحد..

كان بإمكاني الزواج منذ قرون ليس لأني رجل جميل، ولا لأني غني مثلا، لكنك تعرفين أن ثمة إناث كثر على هذه الأرض يقبلون بأي شيء والزواج بالنسبة لهم حلم عظيم بغض النظر عن الشخص الذي سيتزوجونه، لكني لم أكن لأقبل بأن أتزوج امرأة لا أحبها، لا تثير بي شغفا ورغبة لاكتشاف ما بداخلها، امرأة غريبة، تجيد قول لا حين لا يقنعها أمر ما، تجيد النقاش، قارئة جيدة تتطلع للوصول لأمر ما.. لديها كبرياء وتقديس لذاتها، وتقدر نفسها بحق. أحببت فيك ما تكرهينه، وما تظنين أنه قد يزعجني بك، فالأنثى التي تحمل كبرياء مثلك، ويستقر الله بقلبها، لا بد أنها قد ترفعت عن الكثيير من الأشياء الدون بالسابق، وهنيئا لمن يصل لمحراب مقدس لم يصله أحد من قبل.

أعجبت سارة بمنطقه ورؤيته للأمر بزاوية مختلفة، فبينما كانت دوما تنتقد لغرابتها، التي كانت ستموت وهي عليها بإيمان عميق منها بأن النمطية والاتباع دون اقتناع والسير خلف القطيع لايمكن أبدا أن يناسبها..

بهذه اللحظة تذكرت سارة جملة محمد في المنام إذ قال لها :

" إياك أن تتغيري يا سارة "

_30_

عادت عائلة محمد لبيتهم في البلاد الأخرى وعاد محمد للوحدة بعد أن اعتاد على وجودهم، كل ما كان يملؤه ويملأ وقته التفكير بسارة..

كان وقت الإجازة فلم يكن بمقدوره أن يرى سارة بالجامعة أو حتى أن يلمحها من بعيد، والحديث على الهاتف قليل جدا، يخجل محمد من الإصرار عليها وأن تراه شخصا لحوحا، وسارة لا تتصل أبدا..

فما كان منه إلا الانتظار ليوم الخميس الذي بات يوما تاريخيا ينتظرانه الاثنان بشغف بعد أن قال العم والد سارة لمحمد، نتشرف بحضورك كل خميس، ليكون العم موجودا، وقد شدد على ذلك، لأن باقي وقته يقضيه بالعمل والمزرعة الخاصة بهم في منطقة زراعية بعيدة عن مكان إقامتهم، كما أنه قد نوه لمحمد أنه لا يقبل بحضوره دون أن يكون العم موجودا بالمنزل أبدا، حتى وإن تواجدت والدة سارة وإخوانها..

" وهكذا تبدأ مسيرة خطبة محمد وسارة وحكاية حبهما، وتبدأ المشاكل كلها بالظهور واحدة تلو الأخرى حتى يصلا لنهاية الطريق، لتخلق منهما التجربة شخصين واعيين جدا مدركين ما معنى علاقة حقيقية مبنية على أسس التعايش مع الاختلاف وتفهم الطرف الآخر لا تغييره وتحويره، الخميس الأول بعد الخطوبة وصولا لليلة الزفاف ترقبوه بالجزء الثاني من رواية حب محمدي"

العنقاء

رجاء فوزي

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع